كتابخانه ومركز اطلاع رسا
بنياد دايرة المعارف اسلامي

العدد ٦٥ / خريف ٢٠٠٤ ـ شتاء ٢٠٠٥

فصول

مجلة النقد الأدبى
علمية محكمة

ملف العدد
النظرية الأدبية الآن

مجلة فصلية تصدر عن الهيئة المصريه العامة للكتاب

تعديل القوة الإنجازية
دراسة في التحليل التداولي للخطاب

محمد العبد

١- مدخل

على الرغم من تواصل الخطاب النقدى العربىّ المعاصر مع نظريات النقد الأدبى فى الغرب الأوربى والأمريكى تواصلاً حاراً، تبدّى فى محاولات عدة للإفادة من مبادئ الاتجاهات الشكلانية والبنيوية والأسلوبية والسيميائية والشعرية وغيرها من الاتجاهات ذات الأصول اللسانية فى مجالات النقد النظرى والتطبيقي، فإن التداولية Pragmatics باتجاهاتها المختلفة ما زالت على هامش النقد العربي، فى الوقت الذى تبدو فيه تحولاً كبيراً فى مسيرة النظرية الأدبية المعاصرة، يقترب يوماً بعد يوم من مركز الاهتمام فى نظريات الخطاب والتأويل الأدبي. قامت اللسانيات التداولية على تحليل مقاميات الخطاب ومقاصده؛ إذ عنيت بدراسة معاني المنطوقات فى علاقتها بالمتكلم، ودراسة الاستلزام الحواري، ودراسة كيفية كون الاتصال شيئاً أوسع من مجرد القول، ودراسة الشروط التى تجعل المنطوقات مناسبة وناجحة إنجازياً، ودراسة العلاقة بين أفعال الكلام وسياقاتها غير اللغوية. نهضت اللسانيات التداولية على مكونات ثلاثة: فضلاً عن تحليل المحادثات، وتحليل الفروق الحضارية والتفاعلات اللغوية من منظور العلوم الاجتماعية. نهضت اللسانيات التداولية على فلسفة اللغة. وعلى تداولية أفعال الكلام بوجه خاص. إذا كانت نظرية تحليل الخطاب ونظرية التأويل الأدبى ركيزتين قويتين فى النظرية الأدبية المعاصرة، فقد كانت تداولية أفعال الكلام من أهم الدعائم اللسانية التى ساعدت هاتين النظريتين على النمو والازدهار.

لقد أتاحت تداولية أفعال الكلام لتحليل الخطاب منهجية لسانية جديدة، من حيث إنها نظرت إلى الكلام الأدبى وغير الأدبى بوصفه "فعلاً لغوياً Speech Act" يدل عليه قصد المتكلم، ومن حيث إنها برهنت على أن إدراك المعانى الحقيقية للمنطوقات اللغوية إنما يتحقق فى سياقات الاتصال الفعلية. من ثم أفسحت أدبيات النظرية الأدبية المعاصرة المعتبرة مجالاً واسعاً للتعريف بتداولية أفعال الكلام وتكييف بعض مفاهيمها لأهداف التحليل الأدبى الخاصة، ورأتها ضرورية لاكتمال دائرة فهم المنطوقات والنصوص مرتبطة بوظائفها وسياقاتها الحقيقية. لقد عولت دراسات سيميائية عدة على منهجية تداولية أفعال الكلام، من أهمها "سيمياء المسرح والدراما ١٩٨٠" الذى أفاد فيه كير إيلام Keir Elam من بعض الأسس المنهجية التى قامت عليها تداولية أفعال الكلام. انتهى إيلام إلى أن قدرة اللغة الاجتماعية والتواصلية والأدائية- أو تداولية فعل الأشياء بالكلمات-

هى التى تسيطر فى الدراما؛ وذلك أن الخطاب الدرامى كناية عن شبكة من الأقوال والأفعال الإنجازية، وهذا يعنى أن التفاعل اللغوى ليس تفاعلاً وصفياً بقدر ما هو أدائي، وأن الحوار ضرب من الفعل الذى يؤدى إلى تضارب قوى العالم الدرامى الشخصية والاجتماعية والأخلاقية[1]. ومن أهم ما عنى به إيلام كذلك بيان كيفية انبثاق الصراع الدرامى من خلال تصادم استراتيجيات الأفعال اللفظية Locutionary Acts باستراتيجيات الأفعال الإنجازية Illocutionary Acts[2].

كان ديتر فوندرليش Dieter Wunderlich قد عنى ببيان ما تقدمه النصوص- أو مقاطع منها- من مساعدة فى تحديد الأفعال الكلامية المقصودة. بين فوندرليش أن الفعل الكلامى يمكن أن يشغل وظائف عدة فى وقت واحد. يمكن للمنطوق أن يكون إقراراً من الناحية الدلالية (وفقاً لشروط النجاح المحددة للمنطوق) ولكنه من الناحية التداولية (أى وفقاً لوظيفته فى الخطاب) استنكار. شرح فوندرليش هذه الفكرة من خلال الحوار الآتى:

١. الأم: كلاوس! ألا تأتى إليّ؟
٢. الابن: لماذا؟
٣. الأم: آه، ما زلت هناك، لتناولنى الوسادة!
٤. الأم: عندما تفرغ مما بيدك، تعال إلىّ، نعم.
٥. الابن: لماذا؟
٦. الأم: لننظف أسناننا.
٧. الابن: (٠٠٠) هذا ما يفعله أبى لي.
٨. الأم: نعم، يفعله.
٩. الابن: أبي! نظف لى أسناني!
١٠. الأب: تستطيع أن تفعل هذا وحدك.
١١. الابن: لا، افعل هذا لي.
١٢. الأب: طيب!
١٣. الابن: تعال يا أبي.

لاحظ فوندرليش أن المنطوق رقم٧ فى المحادثة السابقة يعد من الناحية الدلالية إثباتاً أو إقراراً، ولكنه رفض أو استنكار من الناحية الاتصالية التداولية[3].

وفى كتابه المعروف "النص والسياق١٩٨٠" عنى فان دايك Van Dijk بتطوير تداولية أفعال الكلام عن طريق توجيهها من مجال الجملة (أو المنطوق) عند مؤسسها جون أوستين John Austin إلى طريق النص. وكان من أهم ما صنعه فى ذلك الكتاب تحليله ما أسماه "أفعال الكلام الكبرى Macro-Speech Acts". الفعل الكلامى الأكبر عند فان دايك هو فعل الكلام الإجمالى الذى يؤديه منطوق الخطاب الكلى والذى تنجزه سلسلة من أفعال الكلام المختلفة. انتهى فان دايك هنا إلى أن سلسلة الأفعال الكلامية تفسر بأنها فعل كلامى واحد، إذا كانت تشير إلى مقصد إجمالى واحد. ويمكن لهذا الفعل الكلامى-على مستوى أعلى- أن يكون بدوره شرطاً أو نتيجة لأفعال كلامية أخرى[4]. أطلق فان دايك على أفعال الكلام المفردة (أو البنية الطولية لسلاسل أفعال الكلام) اسم "التداولية الصغرى"، وأطلق على دراسة التنظيم الكلى للتفاعل الاتصالي؛ أى التنظيم الكلى لمتواليات الأفعال الكلامية والسياقات وعلاقتها ببنية الخطاب، اسم "التداولية الكبرى". الفعل الكلامى الذى تؤديه متوالية من الأفعال الكلامية هو إذن فعل كلامى إجمالى Global Speech Act أو فعل كلامى أكبر Macro-Speech Act. تفسر متوالية الأفعال الكلامية فيما يأتى مثلاً بأنها فعل إجمالى واحد هو الوعد [والد يتأمل ما رسمه ولده الصغير]:

أ: ولكن هذا رسم خرافي! عل أنت الذى رسم هذا؟

ب: بالطبع، أنا الذى رسمه.
أ: هائل، أحبه. لكننى أرى أنك بحاجة إلى ألوان أكثر.
ب: نعم، كاد الأزرق أن ينفد.
أ: إذن سأشترى لك بعض الألوان الجديدة.
ب: لا تنسها ثانية.
أ: كلا! لن أنساها أبداً!

يبين فان ديك أن هذه المحادثة قد اشتملت على أفعال كلامية عدة: كالمدح والسؤال والتصريح والاقتراح والتوكيد والوعد، ولكن الوظيفة الإجمالية هى الوعد. وربما كانت الوعد فى ثناء[٥].

أسهم كثير من محللى الخطاب فى توظيف تداولية أفعال الكلام فى مجال خطاب المحادثة. وضع ميخائيل ستوبس Michael Stubbs يده على ما أسماه "أفعال الكلام التعاونية Co-operative Speech Acts"؛ وهى أفعال يشترك فى أدائها أكثر من متكلم. بين ستوبس أن المحادثات تبنى بالضرورة على مثل تلك الأفعال الخطابية التى تحدد فى مجموعها فى إطار وظائفها الداخلية؛ أى من داخل الخطاب ذاته[٦].

وفى كتابه المعروف "النظرية الأدبية ١٩٩٧" يفرد جوناثان كولر Jonathan Culler فصلاً كاملاً لمفهوم "المنطوقات الأدائية Performatives". بين كولر كيف رحبت النظرية الأدبية المعاصرة بذلك المفهوم، وكيف قبل نقاد الأدب فكرة "الأدائية" بوصفها شيئاً يساعد على تمييز خصائص الخطاب الأدبي، وكيف أكد المنظرون طويلاً أنه يجب أن نعنى بما تفعله اللغة مثلما نعنى بما تقوله. اهتم كولر ببيان وجوه الشبه بين "الأدائية: و"اللغة الأدبية"، وكيف تكون اللغة الأدبية لغة أدائية، وكيف تساعدنا الأدائية على أن نفكر فى الأدب بوصفه "فعلاً" أو "حدثاً"، وأن تصور الأدب بوصفه منطوقاً أدائياً يؤدى إلى دفاع عن الأدب؛ فالأدب ليس مقولات زائفة وتافهة، ولكنه يأخذ موقعه بين أفعال اللغة التى تحول العالم خالقة الأشياء التى تسميها[٧].

مع تطور موقعية المعنى على خريطة النظرية الأدبية المعاصرة، والنظر إلى المعنى فى نظريات النص والتأويل بوصفه- كما يقول راسل جاكوبى Russell Jacoby- ناتج اشتباك بين نص وقارئ أو مجموعة من القراء[٨]، صار للسانيات التداولية بعامة وتداولية أفعال الكلام بخاصة دور مهم فى منهجية التأويل وفلسفته العامة، فيما يسمى بتداولية التأويل Pragmatics of Interpretation. ضربت جذور التداولية فى حقل نظرية الاستقبال الألمانية Rezeptionstheorie ممثلة فى مدرسة كونستانس عند ياوس وإيزر؛ تلك النظرية التى تعاملت مع موضوع التأويل الأدبي، وفهمت التأويل داخل نموذج اتصالى تداولي، وسلمت بمرجعيات تشارلز موريس Ch. Morris-وهو من جعل للتداولية معناها المعروف- والتى سلمت بتحليلات جون أوستين.

بناء على ما تقدم، تأمل هذه الدراسة-من منطلق الاقتناع بأن كل تطور فى النظرية اللسانية يؤدى بالضرورة إلى تطور فى النظرية الأدبية مساو له فى القوة والاتجاه- أن تكون فاتحة اتصال بتداولية أفعال الكلام وتطبيقها على العربية من خلال أحد مفاهيمها المركزية الفاعلة فى حقل تحليل الخطاب، وهو مفهوم "تعديل القوة الإنجازية Modifying Illocutionary Force"، الذى أراه جديراً بأن تفتح له دراساتنا اللسانية والأدبية أبواب الاهتمام والرعاية.

٢- القوة الإنجازية

وضع الفيلسوف اللغوى البريطانى جون أوستين John Austin (١٩١١-١٩٦٠) دعائم نظرية أفعال الكلام بكتابه الذى صدر فى عام ١٩٦٢م؛ بعد وفاته بعامين. كان أوستين قد جعل

الفعل الكلامي Speech Act أنواعاً ثلاثة: الفعل اللفظي Locutionary Act، والفعل الإنجازي Illocutionary Act، والفعل التأثيري Perlocutionary Act. في المنطوق: "أعرض عن الجاهلين" مثلاً، نرى الفعل اللفظي في الفعل الصوتي، وفي فعل التلفظ بمفردات تنتمي إلى معجم بعينه وتخضع لقواعد بعينها في اللغة، وفي فعل استعمال تلك المفردات والقواعد لإبلاغ معنى ينتج عن المفهوم Sense والمرجع Reference في آن معاً. أما الفعل الإنجازي، فهو: أمرني (أو نصحني أو نحو ذلك) أن أعرض عن الجاهلين. وأما الفعل التأثيري، فهو ما ينتج عن الفعل الإنجازي من إقناع المخاطب بأن يعرض؛ أي: أقنعني -مثلاً- بأن أعرض عن الجاهلين[٩].

من ناحية أخرى، جعل أوستين المنطوقات اللغوية نوعين: الأدائيات Performatives والتبليغات Statements: الأدائيات منطوقات تؤدي أفعالاً كالوعد والتحذير والأمر...إلخ. والتبليغات منطوقات تعرض أقوالاً كالإثبات والتقرير والإعلان...إلخ. للمنطوقات الأدائية بدورها نوعان: منطوقات أدائية أولية (أو ضمنية)، وهي التي تخلو من الأفعال الأدائية في اللغة (كالمنطوق السابق: "أعرض عن الجاهلين")، ومنطوقات أدائية ثانوية (أو صريحة) وهي التي تشتمل على فعل أدائي في صيغة المضارع المبنى للمعلوم المسند إلى المفرد المتكلم (كقولك: "آمرك أن تعرض عن الجاهلين"). والأفعال الأدائية في اللغة لا حصر لها، منها مثلاً: وعد، أنذر، أكد، شكر، أوصي...إلخ

ما يعنينا هنا الآن هو الإشارة إلى أن الفعل الإنجازي هو الشاغل الأهم في تداولية أفعال الكلام منذ تأسيسها حتى الآن. عندما رغب جون سيرل John Searle- خليفة أوستين وأحد رواد هذه النظرية البارزين- في تعريف الفعل الكلامي، أشار إلى أن بحثه (ما الفعل الكلامي؟ What is a speech Act?) ينبغي له أن يسمى (ما الفعل الإنجازي؟)[١٠].

ويرى سيرل أيضاً أن الفعل الكلامي من النوع المسمى بالفعل الإنجازي هو وحدة الاتصال الإنساني باللغة[١١]. وكذلك الرأي عند دانيال فاندرفيكن Daniel Vanderveken؛ فالفعل الإنجازي -في رأيه- هو الوحدة الأولية لمعنى الجملة، وهو الوحدة الأولية للاتصال[١٢].

حقيقة الأمر إذن أن تداولية أفعال الكلام هي تداولية الفعل الكلامي الإنجازي. بالفعل الكلامي الإنجازي نؤدي أفعالاً لغوية: كالإخبار، وتوجيه الأسئلة، وإعطاء الأوامر، وعمل الوعود والاعتذارات...إلخ. كل من الأفعال اللغوية السابقة كالإخبار والطلب ونحوهما يسمى باسم الغرض الإنجازي Illoc. Purpose أو المقصد الإنجازي Illoc. Point. وكل فعل إنجازي له محتوى قضوي Propositional Content عبارة عن القضية التي يعبر عنها ذلك الفعل. في كتابه (أفعال الكلام Speech Acto ١٩٦٩) يذكر جون سيرل أن المحتوى القضوي قاسم مشترك بين أفعال إنجازية مختلفة في أشكالها ووظائفها مثل:

- هل يترك س الغرفة؟ (سؤال).
- س سيترك الغرفة. (إخبار).
- س اترك الغرفة! (أمر) ....إلخ[١٣].

المحتوى القضوي سمة مشتركة بين المنطوقات الثلاثة السابقة؛ وهو أن يترك س الغرفة.

ما يعنينا هنا -بعد تلك التمهيدات- هو بيان مفهوم القوة الإنجازية، وعلاقة القوة الإنجازية بالمقصد والسياق، والفرق بين القوة الإنجازية والغرض الإنجازي، وعلامات القوة الإنجازية، ونسبية القوة الإنجازية. لا يمكن بحث مشكل "تعديل القوة الإنجازية"، وهو موضوع هذه الدراسة الرئيس، إلا ببيان المفاهيم والفروق والعلاقات السابقة.

(أ) مفهوم القوة

قوة المنطوق الإنجازية جزء من بنيته الدلالية. منذ أوائل الثمانينيات كانت قوة المنطوق هدفاً لهجوم عنيف متزايد قاده أصحاب نظرية تحليل الخطاب. كانت حجتهم أن معظم المنطوقات لا يمكن أن تدرك حقيقتها إدراكاً مأمون اللبس؛ وذلك لأن لكل منطوق ملابسات استعمال مختلفة. قولك مثلاً: " الرصاصة ما زالت في جيبي" يمكن أن يكون إخباراً بحقيقة، ولكنه يمكن -في سياق مناسب- أن يكون تحذيراً أو تهديداً.

عولجت هذه المسألة في تداولية أفعال الكلام. ولكنها كانت معالجة مقتضبة شجعت على الهجوم والانتقاد.

على أي حال، فإن قراءة أدبيات تداولية أفعال الكلام تدلنا على أن الفعل الكلامي يمتلك أغراضاً إنجازية متباينة بتباين ملابسات استعماله. يعرف غرض الطلب الإنجازي قوى تعبيرية عدة، تمتد من الأمر المباشر حتى التمني. أضرب مثالاً على ذلك ما حكاه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه المعروف (البخلاء) قائلاً: "وحدثني عمرو بن نهيوى قال: تغديت يوماً عند الكندي، فدخل عليه رجل كان له جاراً، وكان من أبخل خلق الله. قال: فاستحييت منه، فقلت: سبحان الله! لو دنوت، فأصبت معنا مما نأكل! قال: قد والله فعلت! فقال الكندي: ما بعد الله شيء!"[١٤]. في النص السابق، نرى أن المنطوق:

- لو دنوت، فأصبت معنا مما نأكل!

يمكن أن يعرض محتواه القضوي بقوى إنجازية عدة، نحو:

- ادن، فأصب معنا مما نأكل!
- هل تدنو، فتصيب معنا مما نأكل؟
- ألا تدنو، فتصيب معنا مما نأكل؟
- لو دنوت، فأصبت معنا مما نأكل؟

تختلف هذه الأفعال الكلامية الإنجازية الأربعة في القوة التي يعرض بها غرض إنجازي واحد، هو الطلب: عرض الأول بقوة الأمر، وعرض الثاني بقوة الالتماس أو الدعوة، وعرض الثالث بقوة العرض، وعرض الرابع بقوة التمني. يعني هذا أن القوة الإنجازية خصيصة المنطوقات لا الجمل؛ فالمنطوق الواحد يمكن أن يمتلك قوى إنجازية مختلفة، في ملابسات استعمال مختلفة. القوة الإنجازية إذن هي الشدة أو الضعف اللذان يمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد، في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق.

(ب) القوة والمقصد والسياق

إذا كان الأمر ينتمي إلى أحد الأغراض الإنجازية الكبرى؛ وهو الغرض الإنجازي التوجيهي directional illocutionary point، فإنه -كما رأينا آنفاً- يتوزع إلى أغراض إنجازية فرعية، تعكس اختلافاً في القوى الإنجازية، بين غرض فرعي وآخر، وفقاً للمقصد والسياق.

كان أوستين قد جعل لمقصد المتكلم أهمية كبرى، ورغب بعض محللي الخطاب -مثل ساكسSacks وزملائه- في أن يبرهنوا على أن قوة المنطوق الإنجازية، هي ما يعمد إليه المستمع، لا ما يقصد إليه المتكلم؛ وذلك أن أحداً من المستمعين أو محللي الخطاب، لا يمكنه أبداً أن يتأكد من مقصد المتكلم؛ لأنه لا يقبل الفحص. أما تفسير المستمع، فإنه يتجلى في استجابته، وهذا ما يحدد تقدم التفاعل اللغوي أو نجاحه[١٥]. غني عن البيان أن فكرة تفسير المستمع واستجابته قد صار لها الآن امتدادات قوية في نظرية التأويل الأدبي.

فى تداولية أفعال الكلام كان توليد قوة المنطوق الإنجازية مظهراً من مظاهر الاختلاف بين اثنين من مؤسسيها وهما: أوستين، وسيرل. يرى أوستين أن قوة المنطوق الإنجازية تحقيق لمقصد المتكلم تحقيقاً ناجحاً، ولكن سيرل يرى أن القوة حاصل تفسير المستمع للمنطوق.

يرتبط مقصد المتكلم بالسياق. يوضح السياق ما يفعله المتكلم على نحو أفضل؛ أى إن كان يريد بمنطوقه التهديد أو التحذير أو نحوهما. ومن الضرورى أن يكون السياق-كما يقول هولدكروفت HoldCroft- على النحو الذى يراه فيه المتكلم؛ فمثلاً ينبغى للمتكلم أن يكون فى موقع السلطة حتى يصبح منطوقه طلباً حقيقياً. وينبغى له أن يمتلك موقع الملاحظة حتى يصبح منطوقه تبليغاً حقيقياً.... وهكذا[١٦]. يستنبط من ذلك أن دراسة أفعال الكلام ينبغى لها أن تكون عملاً لغوياً اجتماعياً؛ وذلك أن هناك دائماً صلة وثيقة بين الفعل الكلامى ودور المتكلم الاجتماعي. وهذا يدعونا بدوره إلى القول بأن تفسير كل من الغرض والقوة الإنجازيتين تفسيراً صحيحاً، يعتمد على صيغة المنطوق اللغوية وعلى فهم الشبكة الاجتماعية فى آن معاً.

من الإشكاليات المركزية فى تداولية أفعال الكلام إشكالية "أفعال الكلام غير المباشرة Indirect Speech Acts". جوهر هذه الإشكالية المسافة بين القول والمقصد وطبقات المعنى المتعددة، بين معنى قضوى حرفى Literal Propositional Meaning والفعل الذى ينجزه المتكلم فى السياق. المتكلم لا يقول ما يعنيه فى كل مناسبات المنطوق على نحو مباشر. إذا كانت الأفعال الإنجازية الإعلانية والاستفهامية والأمرية تستعمل عادة-على الترتيب- للتبليغ والسؤال والطلب، فإن هذا لا يعنى وجود تناظر كلى بين الفعل ووظيفته. مثال ذلك أن الفعل الإنجازى الإعلاني: "أنت آت غداً" يمكن- إذا لم يقيد السياق الخاص: اللغوى وغير اللغوي- يمكن أن يفسر بأنه تبليغ: "أنت آت غداً"، أو استفهام: "أنت آت غداً؟" أو طلب: "أنت آت غداً!".

وإذا كان العرف اعتباراً تداولياً، فإن منطوقاً مثل: "هل يمكنك أن تفتح الباب؟" أو "هل يمكننى أن أدخل؟"، سوف يدلل على ارتباط التمييز بين أفعال الكلام المباشرة وأفعال الكلام غير المباشرة بالعرف ارتباطاً قوياً. إذا كان الاستفهام يستعمل فعلاً كلامياً مباشراً للسؤال، فإنه يستعمل أيضاً فعلاً كلامياً غير مباشر للطلب. من اليسير أن نلاحظ أن المنطوقين الأخيرين لا يتماثلان تماثلاً تاماً مع الاستفهام العادي. يبين العرف أن الإجابة عن أحد المنطوقين ليست بـ"نعم" ولا بـ"لا". ويبين العرف أن الصيغة الدالة على الإمكان (وهى فيها الفعل المساعد "يمكن") لا تسأل عادة عن معلومة. إنها علامة على الالتماس بالفعل فى المنطوق الأول (ولهذا تصحب غالباً بالعبارة: "من فضلك") وعلامة على الالتماس بالإذن فى المنطوق الثاني. من أجل ذلك، لا يمكن أن يفسر المنطوق الثانى مثلاً بأنه يعني: "هل هذه هى الحال التى أمتلك فيها إذناً بالدخول؟" ولكنه يفسر بأنه يعني: "أسألك أن تعطينى إذناً بالدخول".

أبلى جون سيرل بلاء حسناً فى تحليل أفعال الكلام غير المباشرة. كل من جاء بعده عالة عليه فى ذلك الباب، سواء من كان منهم من أصحاب تداولية أفعال الكلام أم من أصحاب تحليل الخطاب تحليلاً عاماً أو تحليلاً تقابلياً. فى باب "أفعال الكلام غير المباشرة" أدخل جون سيرل الإلماع Hint، والتلميح Insinuation، والمفارقة Irony، والاستعارة Metaphor. فى تلك الصور جميعاً ينفك معنى منطوق المتكلم Speaker's Utterance Meaning عن معنى الجملة Sentence Meaning. هناك حالات ينطق فيها المتكلم جملة ويعنى ما يقوله، ولكنه يعنى فى الوقت نفسه فعلاً إنجازياً آخر ذا محتوى قضوى مختلف. مثال ذلك أن ينطق المتكلم الجملة: "هل يمكنك أن تناولنى الملح؟" وهو لا يعنى سؤالاً مجرداً، بل يعنى التماس مناولته الملح[١٧].

انتهى سيرل فى تحليل أفعال الكلام غير المباشرة إلى عدد من الملحوظات والنتائج المهمة التى صار لها صدى واسع فى أدبيات نظرية التأويل، نوجزها فيما يأتى:

١- يمتلك المنطوق الواحد- فى مثل تلك الحالات السابقة- قوتين إنجازيتين اثنتين؛ إذ يؤدى فعل إنجازى أداء غير مباشر عن طريق أداء فعل آخر.

٢- تبدو بعض الجمل من النوع السابق مستعملة غالباً استعمالاً عرفياً Conventionally Used على أنها التماسات غير مباشرة.

٣- فى أفعال الكلام غير المباشرة يبلغ المتكلم المستمع أكثر مما يقوله عن طريق الاعتماد على خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بينهما: لغوية وغير لغوية، بالإضافة إلى اعتماده على قوى الإدراك والاستدلال العامة عند المستمع.

٤- بناء على ذلك، فإن الجهاز الضرورى لشرح الجانب غير المباشر من أفعال الكلام غير المباشرة سوف يشتمل على نظرية أفعال الكلام، وعلى بعض الأسس العامة للمخاطبة، وعلى خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بين المتكلم والمستمع، فضلاً عن مقدرة المستمع على الاستدلال.

٥- من حقل الأفعال الإنجازية غير المباشرة، كانت التوجيهيات Directives، الأكثر فائدة للدراسة؛ وذلك أن متطلبات الكياسة أو التأدب فى المخاطبات المألوفة تجعلها ثقيلة ومحيرة فى إنتاج جمل أمرية بسيطة (مثل "اترك الغرفة") أو أدائيات صريحة (مثل "آمرك أن تترك الغرفة"). من ثم، يسعى الناس إلى إيجاد وسائل غير مباشرة لأداء أفعالهم الإنجازية.

٦- يلعب العرف فى بعض الحالات دوراً خاصاً. هناك بعض الصيغ اللغوية التى تميل إلى أن تصبح مؤسسة تأسيساً عرفياً على أنها الصيغ اللغوية القالبية المعيارية لأفعال الكلام غير المباشرة. تحتفظ تلك الصيغ بمعانيها الحرفية، ولكنها تكتسب أيضاً استعمالات عرفية، مثل صيغ التأدب التى تستخدم للالتماس.

٧- فى ضوء ما سبق، يسلم جون سيرل بالتمييز بين المعنى والاستعمال. ولكنه يرى التسليم بالتمييز بين أعراف الاستعمال وأعراف المعنى على درجة أقل. بيان ذلك أن ("هل يمكنك" و "أريدك أن" ونظائرها من الأشكال اللغوية الأخرى، ليست- فى رأيه- إلا وسائل عرفية لعمل التماسات. ومعروف أن الدافع الأظهر إلى تجنب المباشرة فى الالتماسات هو التأدب. تميل بعض الصيغ هنا إلى أن تصير وسائل التأدب العرفية لعمل الالتماسات غير المباشرة[١٨].

٨- لقد أحتلّ جون سيرل منزلة متميزة فى تداولية أفعال الكلام؛ لأنه انفرد بمحاولة إعادة بناء الخطوات الضرورية لإنتاج فعل إنجازى أولى من فعل إنجازى حرفي، وهى إعادة بناء مؤسسة على حقائق عن المخاطبات، وأسس التعاون الخطابي، ونظرية أفعال الكلام، وخلفية المعلومات المشتركة بين المتخاطبين، ومبدأ الاستدلال[١٩].

(جـ) القوة والغرض

هناك خلط بين مفهومي: القوة والغرض عند بعض رواد تداولية أفعال الكلام ومنظريها منذ أوستين حتى اليوم. فى مواضع عدة من كتابه المشار إليه آنفاً استخدم جون أوستين مصطلح "القوة Force" وهو يعنى ما ينبغى أن يعنيه مصطلح "الغرض" أو الغاية من الفعل الكلامى Purpose[٢٠]. وقد وقع فى هذا الخلط نفسه آخرون منهم، هارولد صادوك Harold Sadock[٢١]، وأنا ويرزبيكا Anna Wierzbicka[٢٢]، وغيرهما. انتقلت عدوى الخلط بين هذين المفهومين إلى الدكتور/ أحمد المتوكل، فى محاولته الإفادة من بعض معطيات تداولية أفعال الكلام فى دراسة بعض أبواب النحو العربى دراسة وظيفية[٢٣].

ميز آخرون بين القوة والغرض، على رأسهم: جون سيرل، وفاندرفيكن، وجانييت هولز وغيرهم. الغرض الإنجازى عند سيرل مثلاً جزء من القوة الإنجازية. الغرض الإنجازى للالتماس هو ذاته الغرض الإنجازى لأنواع الطلبCommands؛ لأن كلاً منهما محاولة لجعل المستمعين يفعلون أشياء محددة، ولكن القوى الإنجازية بينهما مختلفة اختلافاً بيناً. بناء على ذلك، يرى سيرل أن القوة الإنجازية حصيلة عناصر عدة، الغرض الإنجازى عنصر واحد فقط منها، وإن كان —كما يعتقد— أهم هذه العناصر[٢٤].

جدير بالإشارة هنا أن سيرل كان يرى القوة بعداً من أبعاد التمييز بين الأفعال الإنجازية[٢٥]. ولكننى أرى الأحرى أن تكون القوة بعداً من أبعاد التمييز بين الأغراض الإنجازية الفرعية لغرض إنجازى أكبر واحد: فالاقتراح والإصرار فعلان إنجازيان، يمثلان غرضاً إنجازياً واحداً، هو الغرض الإخباري، ولكن درجات القوة بينهما مختلفة.

من ناحية أخرى، يرى سيرل أن القوة جزء من المعنى، وأن المعنى يعين قوة بعينها. هذا مما نتفق معه فيه، ومما يتفق معه فيه باحثون آخرون كثيرون. ولكن قوله بأن المعنى والقوة تسميتان مختلفتان لفعل واحد، وليسا فعلين مختلفين، مما نأخذه عليه؛ وذلك أن تعيين المعنى للقوة، يعنى أن المعنى ليس هو نفسه القوة، إنما هو أحد محدداتها. لا يمكن أن ننتهى إلى تعيين قوة الأمر مثلاً، دون فهم المعنى الدلالى والمعنى الوظيفى للمنطوق. ولا يمكن أن ننتهى إلى فصل بين درجة من درجات قوة الأمر، دون فهم المعنيين السابقين مرتبطين بالسياق اللغوى والسياق الموقفي. إن قوة المنطوق الإنجازية جزء مكمل لمعناه، بالمفهوم الدلالي. وهذا يعنى أن المعنى أوسع من القوة؛ لأنه يضم القوة والمحتوى القضوى فى آن معاً. استعمالات اللغة غير محدودة من جهة القوة الإنجازية، ولكنها محدودة بحدود ما نفعله بواسطة اللغة من جهة الغرض الإنجازي.

وكان سيرل قد حصر استعمالات اللغة فى أغراض رئيسة خمسة، هي: الإخبار، والتوجيه، والالتزام، والتعبير، والإعلان[٢٦].

خلاصة القول أن القوة والغرض عنصران مكملان للمعني. القوة درجة والغرض وظيفة. لكل غرض رئيس أغراض فرعية؛ فالتوجيه مثلاً أحد الأغراض الرئيسة الخمسة فى تصنيف جون سيرل، وله أغراض فرعية: كالأمر، والالتماس، والعرض، والتحضيض، وغيرها. ولكل غرض درجات مختلفة من القوة وفقاً لسياقات الاتصال.

(د) علامات القوة

جعل أوستين للقوة علامات ستًّا، هي: الصيغة ("أغلق الباب") تضاهى آمرك. و("أغلق الباب إذا أردت" تضاهى آذن لك) ونغمة الصوت (تختلف نغمة التحذير عن السؤال أو الاعتراض...إلخ) وأشباه الجمل (التى يقصد بها تكييف قوة المنطوق مثل: تكييف قوة: "سوف أفعل" بإضافة "من المحتمل"، أو تكييف قوة النهى بالظرف مثل: "لا تنس أبداً...") وأدوات الربط (مثل "من أجل ذلك") التى تستخدم فى قوة "استنتج" و "على رغم ذلك" التى تستخدم فى قوة "أسلم بأن") ومصاحبات المنطوق (كأن تجعل منطوقك مصحوباً بحركة جسمية كإشارة الإصبع، أو غمزة العين....إلخ) وملابسات المنطوق (وهي تساعد مساعدة مهمة للغاية فى تحديد الغرض؛ فالأمر يمكن أن يكون أمراً، أو إذناً، أو عرضاً، أو التماساً، أو توسلاً، أو اقتراحاً، أو توصية أو تحذيرا...إلخ) [٢٧].

فى دراسات أخرى لاحقة امتدت علامات القوة إلى مستويات التحليل اللغوى كافة، لاسيما العلامات الصوتية والتركيبية والخطابية.

أشرنا إلى أن القوة الإنجازية بُعد من أبعاد التمييز بين أغراض فرعية لغرض إنجازى أكبر واحد، تنتج بتفاوت درجات القوى. يعنى هذا أن الغرض الواحد تعرف منطوقاته قوى إنجازية

عدة. فى الغرض الإنجازى الإخبارى مثلاً يمكن أن نقول: "ضاع" و"أظنه ضاع" و "واأسفاه، ضاع!". وفى الغرض الإنجازى التوجيهي، يمكن أن نقول: "توقف عن الكلام!" و "توقف عن الكلام، من فضلك!" و"توقف عن الكلام راضياً أو غير راض!". فى كل من "ضاع" و"توقف عن الكلام" نحصل على القوة الإنجازية الأبسط ذات الغرض الإخبارى أو التوجيهي. وفى "أظنه ضاع" و "توقف عن الكلام، من فضلك" تدخل علامة من علامات القوة هى فيهما علامة إنقاص فى درجة القوة؛ لأنها تضعف قوة التبليغ فى الغرض الإخباري، وتضعف قوة الأمر إلى قوة الالتماس بصيغة خاصة للتأدب، فى تحقيقها الغرض الإنجازى التوجيهى (فالمتكلم باستخدامه "من فضلك" يمنح المستمع حق الاختيار فى عمل محاولته بجعله يفعل شيئاً ما)[٢٨]. وفى المنطوقين الأخيرين تدخل علامات القوة بالزيادة: تعلن "واأسفاه" عن أسف المتكلم الذى ينقله المحتوى القضوي، حتى يمتلك المنطوق قوة الأسف للوضع الراهن. وتلغى "راضياً أو غير راض" حق المستمع فى الاختيار؛ أو الإرغام على الفعل.

علامات القوة السابقة، سواء أكانت وسائل معجمية أم هيئات تركيبية، تعد مفاتيح لغوية تقود إلى تعيين القوى الإنجازية والتمييز بين درجاتها. يضاف إلى تلك المفاتيح اللغوية اعتبارات تداولية (بما فى ذلك أعراف الاستعمال الضمنية كما شرحها سيرل[٢٩]، والاستلزامات الحوارية Conversational Implicatures بما فى ذلك المبادئ الخمسة التى قدمها جرايس والتى يتبعها المشاركون فى التخاطب)[٣٠].

(هـ) نسبية القوة

إذا كانت القوة الإنجازية لفعل كلامى تعنى الشدة أو الضعف اللذين يعبر بهما عن غرض إنجازى بعينه، فى موقف اجتماعى بعينه، أياً كان المؤشر أو العلامة الدالة على تلك القوة، وإذا كان لكل من الشدة والضعف درجات متفاوتة، فإن القوة الإنجازية ينبغى لها أن توصف بأنها نسبية. بيان ذلك أن الأمر—مثلاً— يوصف غالباً بأنه النمط الأقوى من أنماط الغرض الإنجازى التوجيهي، وأنه الأشد تحققاً ومباشرة. ولكن إذا تأملنا ذلك، فى ضوء الاستعمال الفعلى المرتبط بالواقعة الكلامية أو المقام، وجدنا ذلك يستعصى على التسليم. إذا قارنا مثلاً "الأمر" بالصيغة ذات الفعل المساعد "يجب" أو "ينبغي" سيبدو "الأمر" من ناحية أقوى كثيراً عندما يكون المتكلم فى كامل سلطته in full authority (كالقائد فى الجيش) للتأكد من أن "أمراً" قد صدر (فى حال لا يصلح فيها استعمال أحد هذين الفعلين "يجب" أو "ينبغي") ومن ناحية أخرى، سيبدو "الأمر" أضعف كثيراً عندما يستعمل فى مثل: "ادخل!" (فى إجابة عن طرقة باب). إنه فى الحال الأخيرة، يعطى إذناً. وهى حال لا يناسبها أبداً استخدام "يجب" أو "ينبغي".

يشرح ف.ر. بالمر F.R.Palmer المسألة السابقة بأن المستمع يمكنه أن يرد—إذ ذاك— رداً فيه إهانة: "من أنت حتى تعطينى أوامر؟". ستبدو الأفعال المساعدة ذاتها (نحو: "تقدر" و"تستطيع" و"يمكنك") المستخدمة للإذن، أقل تأدباً— فى هذه الملابسة— من الأمر. يستطيع المستمع هنا أيضاً أن يرد فى إهانة: "من أنت حتى تعطينى إذناً؟". نتفق مع بالمر فى رؤيته أن "الأمر" هنا لا عمل له إلا بالتعبير عن فكرة قصد المتكلم—فى رضا— إلى الفعل action، على نحو أشد حيادية. إنه يعرض قضية فحسب، كما هى الحال تماماً فى الإعلان Declaration؛ ولكنه يعرضها من أجل الفعل، لا من أجل أن تكون مقبولة عند المستمع فحسب، لصدقها[٣١].

الأمر إذن اصطلاح حيادى داخل النظام الفرعى لأفعال الكلام التوجيهية. يقول بالمر: "ليس الأمر بالضرورة أقوى من صيغة الفعل المساعد "يجب" أو "ينبغي". الأمر قضية واجبة الوجود فحسب deontic proposition. وهو يترك للمستمع الحكم بقوة إلزامه بالفعل من خلال الملابسات. إذا قال قائد لجنوده: "قفوا!"، فلن يكون هذا المنطوق إلا أمراً. ولكنه محض تعبير عن

إذن بالدخول فى "ادخل!" حيثما لا يكون استعمال "يجب" فى هذه الملابسة مناسباً. من ثم يتبين أن الأمر ليس أقوى من "يجب" ولا أضعف، كما أنه ليس أكثر تأدباً من "يجب" ولا أقل[٣٢].

٣- تعديل القوة الإنجازية

يعدّل المتكلم منطوقه أو يكيّفه لمقصده فى سياق اتصالى بعينه . يدحض مبدأ تعديل القوة الإنجازية من البداية مبدأ معروفا عند جرايس ، هو : " كن مقتصدا Be Brief "، وذلك أن المتكلمين كما يقول ميخائيل ستوبس لايستعملون كلمات زائدة دون سبب . ليست هناك تعبيرات أسلوبية[٣٣].

يعد مبحث التعديل (أو التكييف) من أثرى حقول البحث وأكثرها فائدة فى تداولية أفعال الكلام فى النظرية اللسانية المعاصرة العامة .

صار مبحث التعديل دعامة لسانية تداولية أساسية فى نظرية النص ونظرية تحليل الخطاب؛ وصار تبعا لذلك من الدعامات اللسانية التداولية الأساسية فى النظرية الأدبية المعاصرة بأسرها . إذا كنا نريد فقها حقيقيا بالنظرية الأدبية المعاصرة ومعطياتها فى التحليل العلمى للنصوص الأدبية فلنمسك بالأسس اللسانية التى اعتمدت عليها فى بناء برامجها وآلياتها فى مثل ذلك التحليل.

تنصرف غايتنا هنا إلى بحث تأثيرات الاستراتيجيات التى توظف فى تعديل القوة فى المنطوقات المؤثرة تأثيراً إيجابيا والمنطوقات المؤثرة تأثيرًا سلبيًا، معولين على ما تزود به النصوص لاسيما النصوص الأدبية - من معطيات - ونحاول هنا أيضاً أن نفيد من أحدث الدراسات فى مجال تعديل القوة الإنجازية لبيان الدوافع والأسباب التى تحدو المتكلمين إلى توظيف مثل تلك الاستراتيجيات . أما دأبنا الأكبر ، فهو وصف الوسائل اللغوية المختلفة التى يكيف بها المتكلمون قوة المنطوق الإنجازية على نحو أو آخر .

(أ) استراتيجيات التعديل

من المسلم به أن تعديل قوة المنطوق الإنجازية يرتبط باستراتيجيات الاتصال العامة. إذا تأملنا دوافع السلوك الاتصالى ، فسوف يتبين لنا أنها تتنوع من حالة إلى أخرى . يضع المتكلم عرضا أو التماسا ، تهديدا أو احتجاجا ،مدحا أو قدحا ، حثا على فعل أو نهياً عنه، إعلاء شىء أو إبطاله .... وهكذا " وبدهى أن غرض المتكلم هو الذى يحدد الطريقة التى يتكلم بها؛ فالشخص الهجومى يستطيع- كما يقول ز . سالزمان Z. Salzmann - أن يتكلم فى نعومة واحترام، عندما يوقفه شرطى عن عجلته آملا أن يترك هذا السلوك الكلامى الاعتذارى المهذب أثره فى ذلك الشرطى ، بأن يكتفى- مثلا- بتحذيره ، وإن كان مستحقا الغرامة[٣٤].

كل سلوك اتصالى موجه إلى هدف، والأهداف مختلفة. والقضية التى تشغل دائما بال الباحثين فى شتى أنواع الاتصال اللغوى هى كما يقول رومان ياكوبسون Roman Jacobson: مطابقة الوسائل المستخدمة للأثر المستهدف[٣٥].

إن من الحقائق الجوهرية فى الاستعمال اللغوى ارتباط الصيغة بالمقصد. ومن المسلم به فى كل تفاعل لغوى،أن الكيفية التى يقال بها الشىء تعد جزءاً مما يقال. حينما يعدل المتكلم قوة منطوقه الإنجازية، فإنه يدلل بذلك على وعيه بالمقصد وتقديره مقتضيات السياق. وهما يرتبطان - فى تقديرنا- بكفاءة المتكلم وأدائه معاً. ولعل خير تفسير سوسيولوجى لهذين الاصطلاحين، ما نجده عند ب. برنشتاين B. Bernstein. تشير الكفاءة عنده إلى المتكلم مستخلصاً من المحددات والقيود السياقية، ويشير الأداء إلى المتكلم فى قبضة تلك القيود السياقية التى تحدد منطوقاته. تشير الكفاءة إلى المثال Ideal، ويشير الأداء إلى الحال Fall[٣٦].

فى السبعينيات، كان الباحثون قد اعتادوا البحث فيما سمى بـ"ثقافات التأدب السلبى Negative-politeness cultures" وكانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بأثر ظاهرة التأدب فى الاستعمال اللغوي، منصرفين-فى حالات كثيرة- إلى علاقة السؤال بمظاهر التأدب فى الخطاب. وفى عام ١٩٨٠ أصدر كل من فريزر Fraser ورينتل Rintell وولترز Walters بحثاً مشتركاً عن اكتساب "الكفاءة التداولية" فى اللغة الثانية Second language. فى هذا البحث عرض هؤلاء للاستراتيجيات والقوالب الدلالية التى تتخذها اللغة لأداء فعل كلامى بعينه: فإذا استطاع المتكلم مثلاً أن يلتمس-فى إحدى اللغات- عن طريق سؤال المستمع عن قدرته على فعل كلامى (هل تستطيع أن تفعل هذا؟) أو عن طريق التعبير عن رغبته فى أن يفعل المستمع ذلك الفعل الكلامى (مثل: سأكون ممتناً حقاً إذا فعلت هذا) فإن هذه الاستراتيجيات ذاتها. تعد نافعة للمتكلم فى أية لغة أخرى[٣٧].

فى ذلك العام ذاته، عرض فريزر فى بحث له منفرد، مفهوماً تداولياً مهما أطلق عليه اسم "تلطيف الخطاب Conversational Mitigation". بيّن فريزر أن التلطيف استراتيجية يعتمدها المتكلم لتخفيف قوة الفعل الكلامى أو إضعافها. ويقع هذا التخفيف (أو الإضعاف)-كما لاحظ فريزر- فى المنطوق الذى تبدو تأثيراته غير مرحب بها عند المستمع[٣٨].

وفى عام ١٩٨٤م ظهر أثر بحث فريزر فى محاولة جديدة، قدمتها جانيت هولز Janet Holmes لدراسة تعديل القوة الإنجازية على نحو أشد عمقاً وإحاطة[٣٩]. اجتهدت جانيت فى تأمل مفهوم التلطيف فى علاقته باستراتيجيات الاتصال لتعديل قوة المنطوق. إذا كان التلطيف يعنى تخفيف قوة المنطوق أو إضعافها Attenuation. فقد كشفت جانيت عن استراتيجية مضادة: هى زيادة قوة المنطوق أو تعزيزها boosting or emphasizing the illoc force.

تعبر المنطوقات عن أغراض عدة، ويمكن للغرض الإنجازى الواحد أن يقدم فى درجات مختلفة من القوة لنقارن مثلاً بين المنطوقات الآتية: "أنت خبيث" و"(يا إلهي) أنت (هكذا) خبيث" و"لديك (شيء) من الخبث". تعبر هذه المنطوقات جميعاً عن غرض إنجازى واحد: هو الانتقاد. ولكن هذا الغرض الواحد، قد قدم بدرجات متفاوتة من القوة. استخدمت "يا إلهي" و"هكذا" لتقوية قوة الانتقاد، على حين استخدمت "شيء" لتخفيف هذه القوة. وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق؛ لأن الانتقاد فعل كلامى سلبى التأثير.

فى حالات أخرى، يبدو الفعل الكلامى فعلاً إيجابى التأثير، نحو: "أنت ظريف" و"(حقاً) أنت ظريف" و"أنت ظريف (نوعاً ما)". فى هذه المنطوقات يستخدم العنصر المعجمى "حقاً" لزيادة القوة الإنجازية التى قدم بها غرض المدح. أما العنصر المعجمى "نوعاً ما"، فقد استخدم لتخفيف هذه القوة. ولما كان التأثير المتوقع لمثل هذا الفعل الكلامى تأثيراً غير مرفوض، فإن استراتيجية من تلك الاستراتيجيات لا يمكن أن تعدّل حتى تصبح تلطيفاً[٤٠].

من الوسائل الأخرى التى تعتمدها استراتيجيات التعديل بزيادة شدة الغرض الإنجازى أو إنقاصها ما يسمى باسم "الإشارة الصريحة explicit reference" إلى شروط الصدق التى تحكم أنواعاً مختلفة من أفعال الكلام. من هذه الأفعال الكلامية ما أسماه جون سيرل بـ"أفعال الكلام العرضية representative speech acts"[٤١].

هذا النوع مما يمكن تقوية قوته أو إضعافها إلى درجة اعتقاد المتكلم، أو مدى التزامه بالقضية التى يعبر عنها المنطوق؛ كقولنا: "(أظن) أنه يوم دراسي" فى مقابل: "أنا (متأكد) تماماً أنه يوم دراسي". يسرى الإضعاف والتقوية على المنطوقات بجميع أنواعها فى تصنيف سيرل المعروف: تعبيرية، أو توجيهية، أو التزامية.....إلخ.

(ب) أسباب تعديل القوة

لماذا يعدل المتكلم قوة المنطوق الإنجازية؟ وما انعكاسات هذا التعديل على العلاقات بين المتكلم والمخاطب، أو بين المتكلم ومحتوى القضية التى يعبر عنها؟ تمس هذه التساؤلات جوهر إجرائية التعديل فى علاقتها باستراتيجيات الاتصال. ترى جانيت هولز سببين رئيسين اثنين يدفعان المتكلم إلى تعديل القوة المعتمدة فى التعبير عن فعل كلامى بعينه:

(أولهما) التعديل من أجل نقل المعنى المرتبط بسلوك المتكلم وتصرفاته تجاه القضية التى يعبر عنها Modal Meaning.

و(الآخر) التعديل من أجل التعبير عن معنى تأثيرى Affective meaning، أو عن سلوك المتكلم إزاء المخاطب فى سياق المنطوق[٤٢].

يمكن أن ندرج هذين المعنيين اللذين ذكرتهما جانيت فيما يسمى بـ Modality. يجمع هذا المصطلح طائفة الوسائل التى تدل على سلوكيات المتكلمين وتصرفاتهم تجاه ما يعبرون عنه من قضايا، وتجاه مخاطبيهم إلى حد ما. تتوزع هذه السلوكيات والتصرفات إلى: ميادين الصلاحية Areas of Validity (حيث يعبر المتكلم فى ثقة أعظم أو أقل عن صدق قضاياه)، والقدرة على التوقع Predictability (حيث تشبه الواقعات المستقبلية المشار إليها شبهاً كبيراً أو ضئيلاً ما يحدث)، والرغبة Desire (كالأحكام العملية أو الأخلاقية أو الجمالية)، والالتزام Obligation (بمعنى حكم المتكلم الذى يلزم شخصاً آخر بأن يؤدى حدثاً بعينه) والإجازة Permission (حيث يسمح المتكلم لمخاطبه بأن يفعل فعلاً بعينه). ويشار إلى ما سبق بطائفة من الصيغ اللغوية، أهمها الأفعال المساعدة نحو: "يمكن" و"يجب" وغيرهما. ويشار إلى ذلك أيضاً بأشباه الجمل مثل: "من المحتمل" و"من المؤكد" ونحوها، أو بالصفات نحو: "أكيد" و"ضروري"...إلخ.

يرتبط بما سبق أيضاً ما يسمى فى اللسانيات الاجتماعية بـ Modality of Deference فالمرءوس يخاطب رئيسه بتراكيب تشير إلى المراعاة والتكريم Deference. فى هذه الحال، ينقص من ثقته الزائدة، وينقص اقتناعه، ويستخدم الملطفات مثل: "نوعاً ما" أو "أنت تدري"؛ كما يستخدم الأسئلة التذييلية Tag Questions، مثل: "يفتح المعرض أبوابه الساعة العاشرة، أليس كذلك؟"، وكذلك تستخدم أنماط التنغيم الصاعد الذى يزيل التوكيد عن فعل الإخبار Unassertiveness. هذه التنوعات جميعاً ذات أهمية عظمى للإفصاح عن علاقات القوة Power Relationships: فهناك-مثلاً- صيغ مميزة تمييزاً دقيقاً لعمل الالتماس، تتدرج وفقاً لدرجات التأدب[٤٣].

مهما يكن من أمر، فإن المعنى الأول مما ذكرته جانيت هولز، يزود بدرجة صدق المتكلم وبصلاحية القضية التى يعبر عنها المنطوق. يمكن للمتكلم-مثلاً- أن يتشكك كثيراً فى صلاحية المعلومة أو سلامتها Validity of the Information، هذه المعلومة التى تحتوى عليها القضية. عندما يضعف المتكلم قوة المنطوق الذى يعبر عن قضية ما، فإنه يعبر بهذا عن عدم الصدق، أو عن عدم رغبته فى اتخاذ رد فعل على صلاحية تلك القضية، كأن يقال: "(لست متأكداً على الإطلاق) من صدق كلامه". ينبه مثل هذا المنطوق إلى تفاوت درجات قوة الإضعاف-إن صح القول- بين تعبير وآخر، عن فعل كلامى واحد: قد يكتفى المتكلم بنفى التأكد فى منطوقه فى حالة بعينها، وقد يطلق النفى لزيادة إضعاف قوة المنطوق، وبالتالى زيادة التشكك أو التردد إزاء القضية المعبر عنها فى حالة أخرى.

تعكس الوسائل اللغوية التى تستخدم للتعبير عن درجات إضعاف القوة أو تقويتها، تعكس مدى التزام المتكلم بصدق القضية التى يعبر عنها المنطوق، وهو ما كان جون لايونز John Lyons قد وصفه-على طريقته فى بحث الدلالة اللغوية- بأنه وسيلة للتعبير عن الحال المعرفية للمتكلم Epistemic Modality[٤٤].

ليست هناك وسائل يمكن معها القول باختصاصها بمعنى من المعنيين اللذين حددتهما جانيت هولمز دون الآخر؛ فما يستعمل مع المعنى الأول من وسائل لغوية معدلة للقوة الإنجازية، يصلح أن يستخدم أيضاً للتعبير عن المعنى التأثيرى. يعبر تعديل قوة المنطوق مع المعنى التأثيرى عن تنوع المسالك والتصرفات إزاء المستمع، انتقالاً من مجال التصرفات الإيجابية جداً إلى مجال التصرفات السلبية جداً. بناء على ذلك، عدَّ فحص إسهام استراتيجيات تعديل القوة، فى علاقة المتكلم بالمخاطب، طريقة من طرق تحليل المعنى التأثيرى لإضعاف قوة المنطوق أو تقويتها. فى هذا المقام، تطرح جانيت سؤالاً عن مدى تأثير استراتيجيات التعديل فى تحقيق التماسك الاجتماعى بين المتكلم والمخاطب حيناً، أو تحقيق التباين الاجتماعى بينهما حيناً آخر. تبين جانيت العلاقات الممكنة بين استراتيجيات التعديل والمعنى التأثيرى (وهى استراتيجيات يعبر عنها فى حدود تأثيرها فى علاقة المتكلم بالمستمع) من خلال الشكل الآتى:

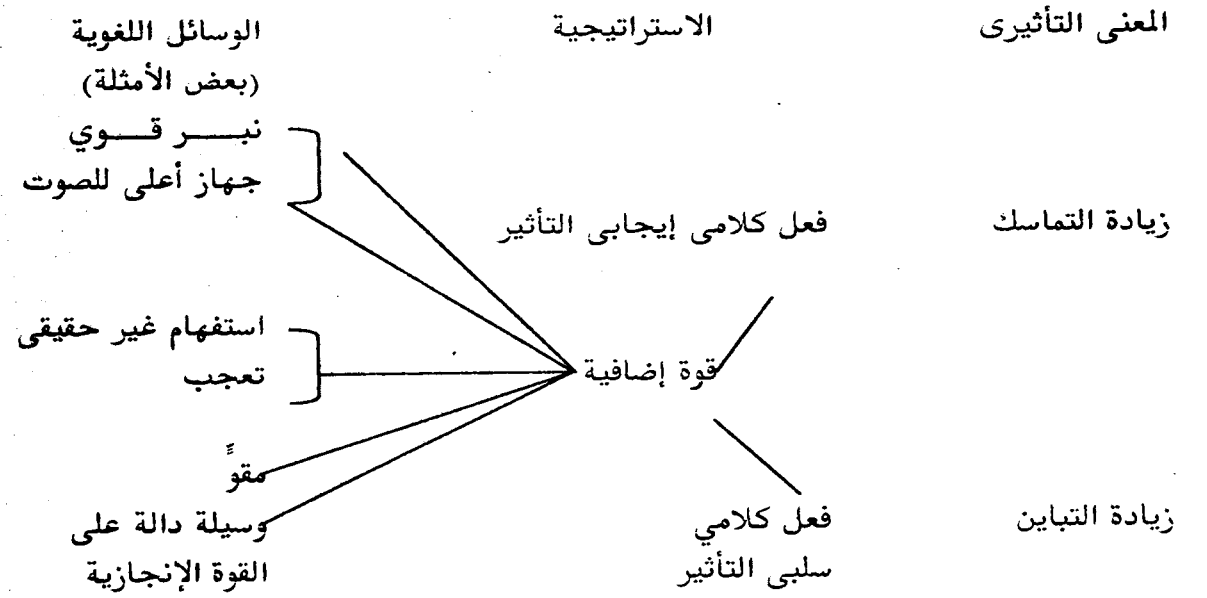

(الشكل ١)

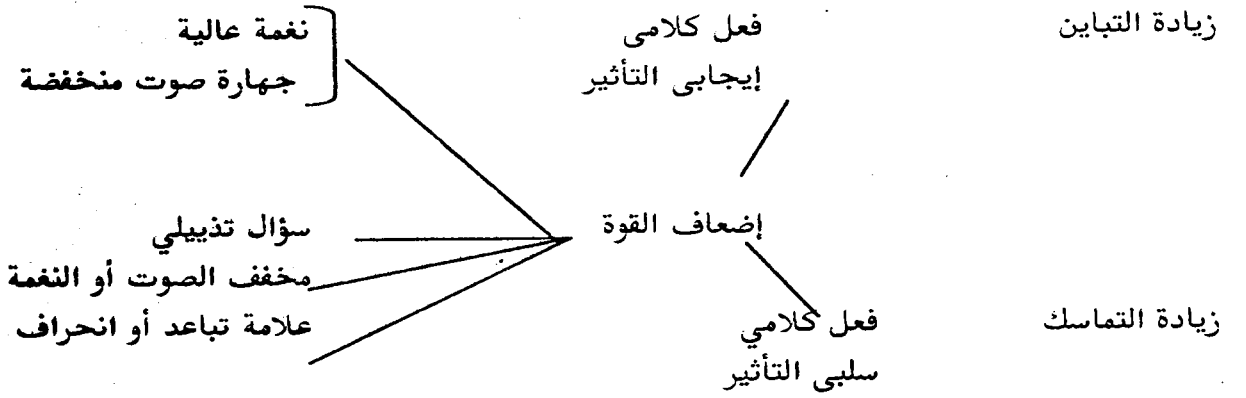

(الشكل ٢)

يستنبط مما سبق عدة أمور ، من أهمها:

١- أن إضعاف الفعل الكلامى سلبى التأثير (وهو ما ندعوه بالتلطيف) يعد- فى هذه الحدود- استراتيجية مهمة فى تطور العلاقة بين المتكلم والمخاطب، أو لنقل: إنه من أجل إضعاف التباين الاجتماعى بينهما، بالإبقاء على هذه العلاقة. بيان ذلك أن إضعاف قوة منطوق

غير مرحب به، إنما هو تعبير عن مشاعر إيجابية، يمتلكها المتكلم تجاه المخاطب، هذه المشاعر التى تزيد تماسك العلاقة بينهما.

٢- أن تقوية الفعل الكلامى إيجابى التأثير، يمكن بالمثل أن تفسر على أنها تعبير عن الصداقة أو الزمالة بين المتكلم والمخاطب. من ثم، ينظر إلى المفردات بين القوسين فى المنطوقات الآتية، على أنها تشغل الوظيفة التأثيرية ذاتها، على رغم اختلاف الاستراتيجيات المستخدمة:

أ- ماذا تعتقد يا ب؟

ب-(حسناً) (أعتقد) أن س كان الأغبى.

- (حقاً) كان ذلك كرماً شديداً.

٣- أن إضعاف الفعل الكلامى إيجابى التأثير، يمكن أن يفسر على أنه استراتيجية لزيادة التباين الاجتماعى بين المتكلم والمخاطب. يتبع ذلك جعل تخفيف تأثيرات الفعل الكلامى الإيجابى إنقاصاً لقوة التماسك بينهما، لا استبقاء له.

٤- أن تقوية الفعل الكلامى سلبى التأثير، تعد استراتيجية لإضعاف المودة وتقوية التباين الاجتماعى بين المتكلم والمخاطب. من ثم، تمدنا المنطوقات الآتية، باستراتيجيات مختلفة لتعديل القوة الإنجازية التى تحتوى عليها، معبرة عن أنماط متباينة من المعنى التأثيري.

- (أحسب) أنها تجيد القراءة (لدرجة ما) [التعبير هنا عن معنى تأثيرى إيجابى أضعف فيه المنطوق].

- (لن أتردد) فى أن أرده إليك (ممزقاً) [التعبير هنا عن معنى تأثيرى سلبى قوي فيه المنطوق].

بناء على ما تقدم، يحسن بنا أن نجعل استراتيجيات إضعاف القوة الإنجازية للأفعال الكلامية أو تقويتها جانباً من جوانب النظام المعقد لما يسميه كل من براون Brown وليفنسونLevinson، باسم "الانطلاق الاجتماعى Social Accelerator" و"الكبح الاجتماعى Social brake" اللذين يمارسهما المتكلمون على نحو نظامى عفوى لزيادة التباين الاجتماعى عند التفاعل أو إنقاصه[٤٥].

لعل تجانف المتكلم-فى سياقات بعينها- عن الأمر المباشر إلى الالتماس ونحوه، مما يعكس طبيعة العلاقة بين المتكلم والمستمع، ويكشف عن مدى التباين الاجتماعى بينهما. يقول كلارك Clark وشانك Schunk: "عندما يقوم الناس بعمل التماسات، فإنهم يميلون إلى ذلك ميلاً غير مباشر. إنهم يتجنبون بعامة الأوامر، نحو: "أخبرنى عن الوقت!" التى هى التماسات مباشرة، ويؤثرون الأسئلة نحو: "هل يمكنك أن تخبرنى عن الوقت؟" أو التبليغات نحو: "أحاول أن أعرف كم الساعة" تلك التى تعد التماسات غير مباشرة"[٤٦].

(جـ) وسائل تعديل القوة

يتخذ المتكلمون من الوسائل ما يمكن أن نصنفه فى نوعين اثنين رئيسين:

(أولهما) ما يمكن تسميته بالوسائل الخارجة عن نطاق اللغة: كالسلوكيات الحركية، مثل: الحركات الجسمية، والأوضاع الجسمية، وتعبيرات الوجه والعينين ونحوهما. يمكن لهذه الوسائل الحركية أن تصنع بمفردها موقفاً اتصالياً خاطفاً، ولكن وظائفها الخطابية تظهر فعالياتها مصاحبة أفعال الكلام. من أجل ذلك، كان جون أوستين يسميها "مصاحبات المنطوق Accompagniments of Utterance" يقول: "قد تصحب المنطوقات بحركات جسمية: غمزات العين، وإشارات الأصابع، وهزات الأكتاف، وتقطيب الوجه"[٤٧]. للحركات طبقات يحدد

العرف الاجتماعى السياق الذى يناسب كل طبقة منها ودورها فى تقوية القوة الإنجازية للمنطوق الذى تصاحبه أو إضعافها.

و(الآخر) الوسائل اللغوية: تركيبية، وغير تركيبية. من الوسائل اللغوية غير التركيبية: اللجلجة أو التردد فى الكلام، والوقفات، ونغمة الصوت ونحوها. وهذا النوع هو الذى يعنينا هنا حتى نقف على رصيد الوسائل اللغوية التى تعرفها العربية لكل استراتيجية من الاستراتيجيتين السابقتين، وهو رصيد يستعصى علينا هنا حصره حصراً وتقييده تقييداً. ما نعالجه فى هذه الدراسة قدر ضئيل من المصادر الإنجازية للعربية، وإن كان كافياً لعرض صورة مناسبة عن تعديل القوة الإنجازية فى الخطاب العربي.

(أولاً) وسائل التقوية

يمكن أن نميز-فى العربية- بين أربعة أنواع من الوسائل اللغوية المستخدمة لتقوية قوة المنطوق الإنجازية، وهي: وسائل التشكيل الصوتى Prosodic Devices، والوسائل التركيبية Syntactic devices، والوسائل المعجمية Lexical Devices، والوسائل الخطابية Discoursal Devices.

جـ/١ وسائل التشكيل الصوتي

وتسمى أيضاً باسم الوسائل التطريزية. ويقصد بها: نوع النغمة، والنبر، وجهارة الصوت، والنغمات التقابلية Contrastive Pitches (وهى النغمات الأدنى أو الأعلى من نغمة المتكلم العادية) وجهارة الصوت التقابلية Contrastive Volume. هذه الوسائل جميعاً وسائل فونولوجية توظف فى تقوية قوة المنطوق؛ كأن تقول: "غبي!" [فى جهارة الصوت الأقصى]. وقد تستخدم جهارة الصوت الأدنى مع النغمة الأشد انخفاضاً لتعزيز القوة الإنجازية لمنطوقات سلبية التأثير، مثل: "مغرور!". وقد تستخدم النغمة الأشد انخفاضاً لتعزيز قوة المنطوق إيجابى التأثير أيضاً، كقولك: "ظريف!" أو "عظيم!" ونحو ذلك.

المعوّل عليه فى كل حال، هو سياق الموقف الذى يعين كنه المعنى التأثيرى للنموذج التشكيلي. بيان ذلك أن المنطوق الأخير مثلاً "عظيم!" يمكن أن يدل على معنى تأثيرى يضاد الحقيقة، وهو-إذ ذاك- تعبير عن المعنى على سبيل المفارقة Ironic Meaning. فى مثل هذه الحال، سيدل المنطوق على ضد معناه الحقيقى أو الحرفي. من أجل ذلك سيستلزم المنطوق نغمة هابطة ساخرة وجهارة صوت منخفضة.

والنبر التعبيرى من النماذج الفونولوجية التشكيلية الدائرة فى خطاب المواجهة. يستخدم النبر القوى لتعزيز قوة المنطوق الإنجازية، كقولك: "فظيع!" [وذلك بنبر المقطع الأخير نبراً قوياً، تمطل معه الحركة الطويلة مطلاً زائداً يناسب تعزيز معنى الاستحسان أو الاستهجان وفقاً لإيجابية المنطوق أو سلبيته].

جدير بالإشارة أن الوسائل الفونولوجية التشكيلية ليست من بنية المنطوقات فى الشفرة المكتوبة. وعندما ينص عليها الكاتب، فإنه يدل بذلك على أهميتها ولزومها من حيث هى محددات صوتية سياقية مهمة فى تفسير المعنى. يكثر ذلك فى لغة القص وفى الحوار المسرحى الذى يحاكى الحوار المنطوق فى الواقع. من أمثلة ذلك فى لغة القص ما يرويه الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) عن أحد بخلائه؛ وهو ابن أبى المؤمل، قال: "فلما حضر وقت الغداء، صوت بغلامه-وكان ضخماً، جهير الصوت، صاحب تقعير وتفخيم وتشويق وهمز وجزم- يا مبشر! هات من الخبز تمام عدد الرءوس"[٤٨]. جهارة الصوت والتقعير ونحوهما وسائل فونولوجية تشكيلية اتخذها ابن أبى المؤمل فى كلامه، من أجل تعزيز قوة المنطوق التوجيهى الإنجازية.

جـ/٢ الوسائل المعجمية

يقصد بالوسائل المعجمية ما قد يستخدمه المتكلم في بعض السياقات الاتصالية- من عناصر معجمية تضيف قوة إلى قوة المنطوق الإنجازية. وتتنوع صور التقوية هنا وفقاً لما توجه إليه هذه العناصر: فقد توجه إلى المتكلم، أو إلى المستمع، أو إلى المحتوى القضوي.

جـ/٢/١ المقويات الموجهة إلى المتكلم

يقصد بالمقويات الموجهة إلى المتكلم Speaker-oriented boosters العناصر المعجمية التي تشير إلى صدق المتكلم أو ثقته بما يعلم. الأمثلة الآتية من نصوص مكتوبة أدبية:

- "لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة؛ لأنني (أعلم على التحقيق) أن الفتاة شاهدت المكتبات في المدرسة، وشاهدتها في السوق"[٤٩].
- "على أنني (أعتقد) يا صاحبي أن الطريق الوحيد الذي فتح لنا من هذه المتاهات، هو طريق كتبت عليه كلمة واحدة، لا تتبدل في مشكلة من المشكلات، وهي كلمة "التعاون"[٥٠].
- "وإنني (لأؤكد لك) أنني لو ملكت الفصل قولاً وعملاً في قضية المذاهب الاجتماعية، لأوجزت الحكم وحسمت الخلاف[٥١].
- "إني (واثقة) أنك لن تفعلي شيئاً"[٥٢].

مما ينبغي لنا ملاحظته هنا أن هذه العناصر المعجمية المقوية الموجهة إلى المتكلم تشيع في الشفرة المنطوقة بخاصة؛ لقيام الموقف الاتصالي على التفاعل المباشر، ومن ثم يكثر أن يدور في المحاورات ما يسمى باسم "القواطع الأسلوبية Style Disjuncts"، نحو: بأمانة، صراحة (بصراحة)، بصدق .... وغيرها:

- (بصراحة) هذه عيشة مضنية[٥٣].

جـ/٢/٢ المقويات الموجهة إلى المستمع

يقصد بالمقويات الموجهة إلى المستمع hearer-oriented boosters العناصر المعجمية التي تشير إشارة ضمنية أو صريحة إلى معرفة المستمع، أو إلى المعلومة التي تصنع خلفية مشتركة بينه وبين المتكلم. المثالان الآتيان من بخلاء الجاحظ يوضحان ما سبق:

- "اعلم أني منذ يوم ولدتها، إلى أن زوجتها، كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة، وكنا (قد علمت) نخبز في كل يوم مرة، فإذا اجتمع من ذلك مكوك بعته"[٥٤]. [من كلام مريم الصناع، وكانت زوجت ابنتها، فحلتها الذهب والفضة، فسألها زوجها: أني هذا يا مريم؟].
- "والنبيذ- (ما علمت)- والله يذهب بالحفظ أجمع"[٥٥]. [من كلام لابن غزوان- أحد بخلاء الجاحظ- وكان المكي قد ضبطه متلبساً بسرقة مخدته، فزعم ابن غزوان أنه جاء إليه ليسوّي رأسه، فلما صارت المخدة في يده نسي ما جاء له!].

في الشفرة المنطوقة تكثر عناصر معجمية خاصة، مثل: طبعاً، أو بالطبع. وربما اجتمع في المنطوق الواحد بالشفرة المنطوقة عنصران اثنان، مثل:

- "(أنت تعرف) (بالطبع) أن مريض ضغط الدم يمنع من .... [من حوار إذاعي].

يفسر "هاليداي" Halliday و"رُقية حسن" استعمال (بالطبع) بأنها تعني- إذا نغمت- (أنت علمت ذلك من قبل). فإذا خفضت قصد بها "أوافق على الحقيقة". من ثم، فإنها تستعمل استعمالاً نمطياً في إزالة الشك عن المستمع، حتى يوافق على شيء ما، يدرك المتكلم أنه يأباه. من أجل ذلك فإنها تمتلك قوة المخالفة adversative force[٥٦].

تكشف المسألة السابقة عن ضرورة التنبيه إلى أن تلك العناصر يمكن لها أن تضعف قوة المنطوق الإنجازية أيضاً. والمعول عليه فى تعيين استراتيجية دون أخرى، هو موقعها من المنطوق، وسياق المنطوق الاتصالي، وطبقة التنغيم. نلحظ هنا أن وضع شيء منها فى آخر المنطوق، أو استخدامه لخلع صفة المعرفة على المستمع الذى لا يعرف، أو تنغيمه فى غير طبقة التعزيز؛ مما يغير استراتيجية التعديل إلى الإضعاف.

جـ/٣/٢ المقويات الموجهة إلى المحتوي

يقصد بالمقويات الموجهة إلى المحتوى Content-oriental boosters الوسائل المعجمية التى تستخدم من أجل تقوية القوة الإنجازية للمنطوق بإثبات صحة القضية التى يعبر عنها، أو توكيد صلاحيتها. وهذه الوسائل صيغ دالة على الحالة المعرفية المجردة عن مقولة الشخص Impersonalized epistemically modal forms، والمؤكدة للمحتوى القضوي. إن وسائل نحو: الواقع، مؤكد (من المؤكد، بالتأكيد) لا ريب، لا نزاع في، لا جرم، الحق أن (حقاً) ... إلخ، مما يعزز قوة المنطوق الإنجازية، بإثبات صحة المحتوى القضوي:

- "(مما لا نزاع فيه) أن العاشق أصدق الناس فى شكوكه، حينما يبنيها على أسباب صحيحة وحقائق ملموسة"[٥٧].

مما ينبغى لنا ملاحظته هنا أن من المقويات الموجهة إلى المحتوى، ما هو أشد ارتباطاً بالشفرة المكتوبة الأدبية، مثل: لا مراء (لا مريّة)، لا جرم ونحوها. ومن تلك المقويات ما يبدو أشد دوراناً فى الشفرة المنطوقة مثل: الواقع، أكيد وغيرها. كما تجدر الإشارة إلى أثر التنغيم فى توجيه وظيفة تلك الوسائل: تقوية وإضعافاً. يقول هاليداى ورقية حسن عن (بالتأكيد) مثلاً: "إذا نغمت "بالتأكيد" فإنها تدعو المستمع إلى أن يقبل القضية التى نطق بها. وإذا خفضت كان لها من المعنى ما يكون لمعادلها الرابط Cohesive equivalent؛ أي: هل أنا على حق فى فهمى ما قيل تواً؟"[٥٨].

وقد يدخل المتكلم إلى القضية ما يسمى بالعنصر البؤرى Focal Element الذى يتخذ فى العربية هيئة الظرف أو الجار والمجرور الدالين على التشديد، مثل: مطلقاً، (على الإطلاق)، كاملاً (بالكامل)، تماماً (على التمام) بالضبط وغيرها.

جـ/٣ الوسائل التركيبية

يقصد بالوسائل التركيبية طرق نظم المنطوقات وبناء الأساليب. تعرف العربية وسائل تركيبية عدة لتقوية قوة المنطوق الإنجازية. عالج البلاغيون العرب القدماء كثيراً من تلك الوسائل، مبينين وظائفها وآثارها فى تبليغ مقاصد المتكلمين فى حقل علم المعاني. فى هذا الموضع ينظر إلى بعض الوسائل التركيبية من منظور تعديل القوة الإنجازية باستراتيجية التقوية، لا سيما ما نراه منها على أهمية خاصة فى التفاعل اللغوى المباشر. نختار هنا الأبنية الاستفهامية والتبليغات التذييلية.

إن التفسير التداولى لمنطوقات مثل: "أليس شعرها جميلاً؟!" و"ألا تنفرد بصوت حلو؟!" و "ألم تكن حفلة الأمس رائعة؟!"، يبين أن محتوياتها التبليغية ترتبط بقوة التزام المتكلم بقضايا إيجابية خاصة؛ وذلك أن المحتويات القضوية معلومة عند المتكلم والمستمع من قبل. يعنى هذا أن القالب التركيبى الاستفهامى قد جعل وسيلة لإضافة قوة إلى قوة المنطوق الإنجازية، فى سياقات لا يكون السؤال عن محتوى القضية أثناءها هو وظيفة المنطوق الأولية.

لا تعنى قوة التزام المتكلم هنا التقرير قدر ما تعنى التعجب من المحتوى القضوى الذى أودع المنطوق؛ وذلك أن المستمع–كما ألمحنا– يدرك أن المتكلم يجاوز ذلك إلى تزويد منطوقه بقوة تعجبية، فجعله فى الاستفهام البلاغي. وقد وقف غير واحد من الباحثين فى نظرية أفعال الكلام

على المنطوقات الاستفهامية من هذا النوع، وأبانوا عن أنه مفترض من قبل، وأنه التعجب الذى يكسب المنطوق قوة[٥٩]. والتفت ر.أ هدسون R.A. Hudson إلى الأسئلة البلاغية (أو المجازية) Rhetorical Questions معرفاً إياها بأنها صيغ استفهامية ذات قوة تعجبية[٦٠]. والتفت ج. ليتش G. Leech و ج. سفارتفيك J. Svartvik إلى الفرق بين الأسئلة التعجبية التى تجر المتكلم إلى الموافقة فى قوة، وبين الأسئلة المجازية الأخرى التى تبدو تبليغات قوية أو مؤثرة[٦١].

أرى أن نجعل من الأبنية الاستفهامية المعززة لقوة المنطوق الإنجازية، البنية: (لم لا تستطيع أن تفعل س؟). نرى أن هذا النمط يرتبط ارتباطاً وثيقاً جداً فى قوته بالأمر المتلو بـ (لم لا تستطيع؟). التركيبان: "لم لا تستطيع أن تتركها وحدها؟!" و "اتركها وحدها، لم لا تستطيع؟!" يمتلك كل منهما القوة الإنجازية ذاتها، وهما ينطلقان من بنية عميقة واحدة. ولا يمنع هذا من تفاوت أحدهما عن الآخر فى شىء من خواصه؛ فالتركيب الأمرى مقيد بمخاطب، وغرضه محاولة التأثير فيه. أما التركيب الاستفهامى فغرضه بالأحرى التعبير عن أفكار أحدهم تجاه موقف بعينه. من أجل ذلك، نوافق أنا ويزربيكا Anna Weirzbicka الرأى بأن التركيب الاستفهامي، يعد فى جوهره نوعاً من الانتقاد. وهو انتقاد مهيّج، ولكنه فاقد التأثير. أما التركيب الأمرى فهو فى جوهره نوع من التوجيه الذى يهدف إلى تصحيح موقف غير مرض[٦٢]. أما التبليغ التذييلي، فهو وسيلة تركيبية أخرى من وسائل إضافة القوة إلى قوة المنطوق الإنجازية. فى مثل قولنا: "كان يوماً جميلاً، كان يوماً" لا نرى للتذييل محتوى قضوياً، ولكنه يعبر عن مدى التزام المتكلم بالقضية المخبر عنها؛ أى أنه محض وسيلة لإضافة قوة إلى قوة فعل الإخبار.

جـ/٣ الوسائل الخطابية

يقصد بالوسائل الخطابية الوسائل الخارجة عن النص أو ما يسمى "وسائل ما وراء العملية التداولية meta pragmatic devices"، وما يتفرع عن ذلك من وسائل لغوية فرعية، تضيف قوة إلى قوة المنطوقات الإنجازية. وقد كان لعلم اللغة النصى تقدمه إلى العناية بموقفية النص من خلال سلكه فى سياقات اتصالية. كذلك تفهم مقصدية النص فى إطار تداولية نصية، اهتمت بها نظرية التعامل اللغوى Sprechhandlungstheorie ونظرية أفعال الكلام Sprechakttheorie[٦٣].

من أهم الوسائل الخطابية التى تتضافر فى النص أو الخطاب تحقيقاً لوظيفة التقوية: تعيين الفعل الأدائي، والتكرار، والعلامات الرابطة، ووسائل ما وراء الخطاب:

جـ/١/٣ تعيين الفعل الأدائي

تعيين الفعل الأدائى وسيلة صريحة دالة على غرض المنطوق الإنجازي؛ نحو: أسألك، أخبرك، أحذرك...إلخ. يخلو المنطوق غالباً من الفعل الأدائى اعتماداً على دور السياق، مثل: "زواجاً موفقاً إن شاء الله" (أي: "أرجو"). وحينما يعين المتكلم غرض المنطوق الإنجازى بفعل أدائى صريح، فإنه يريد أن يجعل ذلك نوع توكيد أو تقرير للقوة الإنجازية. كان أوستين يرى التصريح بالأفعال الأدائية مما يجعل قوة المنطوقات أوضح[٦٤]. وكان ليتش يرى أن المتكلم يستخدم مثل تلك الأفعال عندما يريد أن يوقع نبراً خاصاً على قوة المنطوق الإنجازية[٦٥].

يزيل تمام بن جعفر-أحد بخلاء الجاحظ المعروفين- (فى رده على شكوى أحدهم إليه ضرسه) يزيل غموض الغرض الإنجازى لمنطوقه الاستفهامى قائلاً: "(عجبت) كيف اشتكيت واحداً ولم تشتك الجميع"[٦٦].

جـ/٢/٣ التكرار

وهو وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية. يقولون: الشىء إذا تكرر تقرر. والتكرار تعرفه الشفرتان: المنطوقة والمكتوبة كلتاهما، وإن كان تأثيره فى

بنية الشفرة المنطوقة التلقائية أقوى. فضلاً عن تكرار المنطوق بتركيبه، قد يكرر بتغيير طفيف فى هذا التركيب. ويمثل للحالة الأخيرة بالمنطوق التالى من كلام لأبى مازن-أحد بخلاء الجاحظ- لجبل الغمر الذى لجأ إليه، فتساكر أبو مازن، وقال لجبل: "سكران والله، (أنا والله سكران!)" [٦٧].

جـ/٣/٣ العلامات الرابطة

العلامات الرابطة Linking Signals من الوسائل الخطابية الأساسية التى تعزز قوة المنطوق الإنجازية. تعرف العربية كثيراً من تلك العلامات نحو: إلى جانب ذلك، فضلاً عن ذلك، علاوة على ذلك، أكثر من ذلك...إلخ. هذه العلامات نوع من الحشو الخطابى الذى تستخدمه العربية-فيما يثبته البحث اللغوى التقابلي- أقل مما تستخدمه لغات أخرى كالإنجليزية[٦٨].

تدخل تلك العلامات فيما يسميه هاليداى ورقية حسن باسم "روابط الإضافة Additive Conjunction" من النوع الأول الذى يؤدى هذه الوظيفة العامة ذاتها؛ وهى وظيفة الإضافة؛ أى إضافة معلومة، أو تكملة كلام سابق[٦٩].

وقد تستخدم روابط من نوع آخر لوظيفة التقوية أيضاً، نحو: مع هذا، مع أن، على رغم كذا ونحوها. الرابط الأخير مثلاً يستخدم بقوة "أسلم بأن". وهذه الروابط جميعاً مما يسميه هاليداى ورقية حسن باسم "روابط المخالفة adversative conjunction" من النوع الأول الدال على هذه الوظيفة العامة ذاتها[٧٠]. النموذجان الآتيان يوضحان ما سبق:

- "طارق: تريدين أن تتركى هذا البيت؟
نادية: هذا ما فكرت فيه من زمن طويل.
السيدة: وأين كنت ستذهبين؟
نادية: هذا شأنى وحدي.
طارق: دعيها يا أمى تتخذ القرار الذى يريحها.. وسيدهشك أن أقول: إنى أوافقها على هذا القرار كل الموافقة.
السيدة: توافقها؟
طارق: (أكثر من ذلك) أقول: إنى فكرت فيه منذ لحظات...." [٧١].
- "قيل للحارث [من بخلاء الجاحظ]: والله إنك لتصنع الطعام فتجيده، وتعظم عليك النفقة، وتكثر منه، وإنك لتغالى بالخباز والطباخ...، ثم أنت-(مع هذا كله) لا تشهده عدوا لتغمّه، ولا وليا فتسرّه، ولا جاهلا لتعرفه، ولا زائراً لتعظمه"[٧٢].

ولاشك أن الروابط من النوعين السابقين ذات علاقة مباشرة بالموقف Situation، والوسيط Medium، والتأثير المقصود Intended effect. ولا ينفصل الحشو والترابط أحدهما عن الآخر انفصالاً كلياً، ولا يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً كلياً فى الوقت نفسه. كلما زاد الحشو زاد الترابط، ولكن زيادة الترابط لا تؤدى دائماً إلى زيادة الحشو[٧٣].

يمكن أن نجعل لوظيفة التقوية روابط من نوع آخر، نحو: "إذن" التى تدخل فى الروابط السببية Casual Conjunction من النوع الثالث المسمى باسم "الروابط السببية الدالة على الحال أو الملابسة Condition/ Circumstance". من هذه الروابط "هكذا" التى تدخل فى النوع الفرعى الأول من الروابط السببية أيضاً، هذا النوع الذى يدل على السبب والنتيجة reason/ consequence. النموذجان الآتيان يوضحان ما سبق:

- "الشاب: ولماذا لم تكتبى لى بذلك قبل عودتي؟
السيدة: ربما..
الشاب: هو (إذن) عمل تخجلين منه؟ [٧٤].

- [توطئة ودورات ذاتية]"(وهكذا)" انطلقت فى مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها فى تلك الساعة القصيرة"[٧٥].

جـ/٤ وسائل ما وراء الخطاب

تعرف العربية وسائل أخرى، ترتبط-من حيث الوظيفة- بالوسائل الخطابية ارتباطاً قوياً؛ هى المفردات والعبارات التى تعد وسيلة لغوية صريحة لإبراز وعى المتكلم الذاتى بمجرى الخطاب وحالته، وإن لم تكن من بنية النص المنطوق أو المكتوب، نحو: أشدد، أكرر، أعود فأكرر، أقول ثانية، قلت أكثر من مرة، دعنى أشدد ... إلخ.

- "السيدة: (قلت لك أكثر من مرة) دعينى أنا أتصرف"[٧٦].

ومن وسائل ما وراء الخطاب ما يتجه إلى تقوية إسهام المشارك فى التفاعل، نحو: كما تقول، كما قال فلان لتوه، كما ذكرت، كما ذكر فلان من قبل، ... إلخ. هذا نوع آخر من مصادقة المتكلم على إسهام المستمع. والمصادقة نوع تقوية للمنطوق. نلحظ هنا أن مثل تلك الإقحامات Interjections تتردد فى العربية تردداً أقوى من لغات أخرى من غير فصيلتها كالألمانية والإنجليزية والفرنسية. لعل ذلك يرجع إلى أن العربية تنطلق من ثقافة شفهية تركت آثارها فى خصائص السبك وهيئاته.

(ثانياً) وسائل الإضعاف

من سياقات الاتصال ما يحتاج إلى إضعاف المتكلم لقوة المنطوق الإنجازية. تعرف إستراتيجية الإضعاف من الوسائل ما عرفته استراتيجية التقوية من حيث النوع، ولكنها مختلفة من حيث الكيفية.

جـ/١ وسائل التشكيل الصوتي

من أهم هذه الوسائل: منسوب التنغيم، والنبر الضعيف، وجهارة الصوت المنخفضة، والنغمة العالية فى سياق مناسب:

لعب منسوب التنغيم دوراً كبيراً فى حقل القوى الإنجازية فى العربية. هناك نمط من التنغيم الهابط- الصاعد الذى يعبر عن السلوك المعرفى عند المتكلم، وهو وسيلة فونولوجية مهمة لتخفيف قوة المنطوق الإنجازية. فى مثل قولنا: "أنت أ هـ ٧ و ج!" يخفض ذلك التنغيم حدة النقد، كما يخفض قوة المنطوق التوجيهى من الأمر إلى الالتماس فى مثل: "املأ الفراغ ٧ أعلى!".

من ناحية أخرى، فإن تخفيف النبر على مقطع بالكلمة، وما يصحبه من انخفاض جهارة الصوت، يؤدى إلى إضعاف قوة المنطوق. نبر المقطع الأول من الفعل "اكتب" نبراً ضعيفاً يجعل الأمر إذناً بالكتابة فحسب فى سياق مناسب.

أما النغمة العالية، فتستخدم-فى سياقات خاصة- علامة على تجرد المتكلم أو تنصله من مسئولية التصديق بصحة منطوقه. نطق المنطوق: "أنت فيلسوف! فى نغمة عالية يضعف من التصديق بصحة محتواه. يستنبط من هذا أن النغمة العالية ليست دائماً علامة على تعزيز قوة المنطوق. فى سياقات مناسبة تبدو النغمة العالية وسيلة صوتية تشكيلية لإضعاف القوة أيضاً. ولننظر الآن مثلاً إلى كلام ابن أبى المؤمل-أحد بخلاء الجاحظ- [رافعاً صوته فيه بالتنويه والتشنيع حيلتين من حيله لإخجال ضيفه]: "هات يا مبشر لفلان شيئاً يطعم منه، هات له شيئاً!"[٧٧]. سياق رواية الكلام يؤدى بنا إلى القول بأن النغمة التى استخدمها ابن أبى المؤمل كانت نغمة اصطناعية متكلفة ناشزة Falsetto. التنويه والتشنيع فى كلام ابن أبى المؤمل وسائل صوتية تشكيلية يحدد المقام مغزاها، وأنها من احتياله الماكر لإضعاف قوة الأمر انتظاراً لأن يرد الضيف- وقد اعتراه الخجل- "قد فعلت"؛ أى "قد أكلت!".

جـ/٢ الوسائل المعجمية

يشار إلى العناصر المعجمية الدالة على التنصل disclaimers أو الاحتراس hedges باصطلاح "مخفف النغمة downtoner"[٧٨]. ويطلق عليها ب. براون P. Brown اسم "آليات طرح المسئولية deresponsionalizing mechanisms"[٧٩].

جـ/٢/١ المضعفات الموجهة إلى المتكلم

وهى مضعفات أو مخففات معجمية يستخدمها المتكلم فى السياقات المناسبة ليدل بها على تحفظه إزاء منطوق بعينه. وهو تحفظ بعيد عن شكوك المتكلم فى صحة القضية التى يعبر عنها. يغلب أن تعبر هذه العناصر المعجمية عن الحالة السلوكية المعرفية عند المتكلم، نحو: أظن، أخمن، أفترض، أحسب، أقدر، إخال، أعد، يخيل لى، يبدو لي، أستنبط، أستنتج ...إلخ.

بالإضافة إلى ذلك، هناك قوالب تعبيرية تدل على تحفظ المتكلم عند تبريره فعلاً كلامياً على نحو خاص، مثل: إن لم أكن مخطئاً، إن لم أكن أسأت فهمك، إن لم أكن أخطأت سماعك...إلخ.

جـ/٢/٢ المضعفات الموجهة إلى المستمع

تعتمد هذه المضعفات على قدرة المستمع أو رغبته فى التعاون مع المتكلم، نحو: يمكنك كذا، تستطيع كذا، وغيرهما. وربما استخدم المتكلم من القوالب التعبيرية ما يعبر عن تنصله من أداء الفعل الكلامي، مثل: "إذا لم أسبب لك إزعاجاً..." و"إذا لم تكن مشغولاً...". وهذه المكونات الشرطية تصاحب غالباً منطوقات توجيهية، سواء أوقعت فى الصدر أم فى العجز. وربما صاحبت مثل تلك المكونات منطوقات إخبارية مثل: "أدعوك إلى الغداء غداً (إذا أحببت) و "(إذا لم تكن مشغولاً) فسوف أزورك مساء اليوم".

وربما امتاز الخطاب العربى بتلطيف قوة الأمر عن طريق الدعاء للمستمع، الدعاء الذى يرد من حيث الموقع من المنطوق بعد الأمر، نحو: "اربط (عافاك الله) بدل العود بإبرة"[٨٠]. [يعنى عود المسرجة] و"إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤخذون بشيء من ذلك، فرد القميص (عافاك الله)"[٨١] [من كلام لزبيدة، وكان قد سكر ليلة، فكسا صديقاً له قميصاً، ثم أراد ردّه].

جـ/٢/٣ المضعفات الموجهة إلى المحتوى

فى العربية بعض العناصر اللغوية التى تستخدم لإضعاف المحتوى أو التعبير عن عدم التأكد من صحته. وبناء على ذلك، تعد هذه العناصر احتراسات تلطيفية mitigating hedges؛ تؤدى إلى تلطيف قوة المنطوقات أو تخفيفها. يمكن أن نجعل من تلك العناصر، فقط، قليلاً، نوعاً ما، إلى حد ما، درجة ما، شيئاً ما ... إلخ. من ذلك مثلاً قولك: "طعمها حلو (نوعاً ما)".

هناك عناصر أخرى تظهر بونا دلاليا بين الحقيقة reality وما ظهر منها appearance، مثل: ظاهرياً، فى الظاهر، اسمياً، شكلياً، نظرياً... إلخ، مثل: "تبدو (ظاهرياً) دمثة الخلق" و"(علمياً ونظرياً) المسألة محاولة، ولكن الصعوبة فى التنفيذ والتطبيق"[٨٢].

وقد تستخدم وسائل أخرى للتنصل الصريح أو الضمنى من صحة الإخبار مثل: افتراضاً، تخميناً، ادعاء، زعماً، وفقا لـ س...إلخ. من ذلك قولك: "(من المفترض) أنها لم تكذب" و"وفقاً لـ س هى أشدهن أدباً" و"(يدعى) بعض المشاهدين أنها مسرحية سيئة".

فضلاً عما سبق، هناك عناصر لغوية أخرى تدل على توقع أو جواز أو احتمال، مثل: يمكن، يحتمل، يجوز، يتوقع، من الممكن، من المحتمل، من المتوقع ...إلخ.

جـ/٣ الوسائل التركيبية

يضعف المتكلم قوة المنطوق الإنجازية باستخدام وسائل تركيبية مختلفة. تعرف العربية عدداً كبيراً من تلك الوسائل. فى هذا المقام، نقف عند أربع وسائل فقط منها، نراها بحاجة إلى الاهتمام، وهى: الأسئلة التذييلية، والتلطيف بأنماط خاصة من الاستفهام، ونفى الصفة، والعدول:

أما الأسئلة التذييلية، فهى الأكثر استعمالاً لهذا الغرض. فى تداولية أفعال الكلام، نظر إلى الأسئلة التذييلية من حيث هى مضعفات لأفعال الكلام غير المرحب بها Unwelcome Speech Acts. من ذلك قولك: "أنت كنت معه، ألم تكن أنت؟" أو "أنا كنت على حق، ألم أكن هكذا؟"، وذلك عندما يؤدى كل منهما فى تنغيم استفهامى صاعد، ينظر إليه على أنه طريقة ألطف للإخبار بأنك "كنت معه" وبأننى "كنت على حق"، على التوالى دون تذييل. جعلت أنا ويرزبيكا وصفها للبنية الإنجازية للجمل الإعلانية declarative sentences على النحو الآتي:

- أرى أن س.
- لا أريد أن أقول بأننى أعرف أن هذا صواب.
- أريدك أن تقول بأنه صواب، أو بأنه غير صواب.
- أزعم أنك ستقول بأنه صواب.

وإذا كانت الجملة الإعلانية متعلقة برأى بعينه، لا بمسألة حقيقية، فإن القوة الإنجازية سوف تضم أكثر من مكون واحد، نحو ذلك المثال الذى تضربه وتصفه لنا أنا ويرزبيكا:

- ماريا لطيفة، أليست كذلك؟
- أرى أن س.
- أزعم أنك ترى الرأى نفسه.
- لا أريد أن أقول بأننى أعرف أن هذا صواب (أى أنك ترى الرأى نفسه).
- أريدك أن تقول بأنه صواب أو بأنه غير صواب.
- أزعم أنك ستقول بأنه صواب[٨٣].

النمط السابق من الاستفهام التذييلى هو ما يطلق عليه فريزر Fraser اسم "التذييل ذو الاستقطاب المتناظر Contrastive Polarity Tags". أما النمط الآخر فهو ما يطلق عليه اسم "التذييل ذو الاستقطاب المتماثل Matching Polarity Tag"، مثل: "الجو حار، حار؟"[٨٤]، يتراوح هذا النمط الأخير بين وظيفتين خطابيتين رئيستين، هما: الوظيفة الترديدية، والوظيفة التفسيرية. أما الأولى: فهى ترديد منطوق سابق للمخاطب؛ كأن يوجه (أ) سؤالاً إلى (ب) عن معنى جملة، بلغة أجنبية، فيذكر (ب) معناها. يمكن-إذ ذاك- أن يردد (أ) شرح (ب) قائلاً: "تعني: الحاجة أم الاختراع- ألا تعنى هذا؟". ولكنه لا يمكن أن يرد عليه قائلاً: " تعني: "الحاجة أم الاختراع"- تعنى هذا؟". أما الوظيفة التفسيرية: فكأن يفهم (أ) من كلام (ب) أنه مفلس تماماً مثلاً، فيرد (أ): "أنت مفلس تماماً، أنت كذلك؟"[٨٥].

لا يعد النمط الأخير من استراتيجيات الإضعاف، ولكنه يبين أن المتكلم لم يتحقق من سماع المنطوق، إن كان سمع صواباً (وهو ما لا يشك فيه غالباً). المتكلم يريد هنا أن يتحقق من أنه فسّر ما سمعه تفسيراً صائباً.

استطاع فريزر أن يحدد نمطين تنغيميين شائعين للسؤال التذييلي:

(أحدهما) التنغيم النهائى الصاعد، وهو يدل عنده على رضا المتكلم عن الحال الراهنة، ويتضمن استجابة إيجابية.

و(الآخر) التنغيم هابط المنسوب، وهو يدل عنده على الاستياء والضجر، ويتضمن طلب المعذرة، والتماس الإقرار بصحة القضية[٨٦].

أما جانيت هولز، فقد استطاعت أن تثبت من تحليلها مادة مستقاة من الإنجليزية أن التنغيم ذا المنسوب الهابط Falling Contour، يوظف أيضاً وسيلة من وسائل تخفيف قوة المنطوق الإنجازية، وليس التنغيم الاستفهامى الصاعد وحده، كما زعم فريزر[٨٧].

وتقودنا المادة اللغوية المتأملة فى العربية، إلى الاتفاق مع جانيت هولز فيما ذهبت إليه. فى بعض السياقات، يهدف المتكلم بتنغيم تذييلات الأفعال الكلامية تنغيماً هابطاً، إلى إدخال المستمع إلى دائرة التفاعل وتشجيعه على الإسهام فى المحادثة. بعبارة أخرى، يهدف إلى تشجيعه على أن يكون طرفاً فى تقدير صدق القضية المعبّر عنها المتكلم فى قوله مثلاً: "هذا كتابك، أليس هو؟" و"كانت حزينة وقلقة، ألم تكن هكذا؟" يعبر عن مشاعر إيجابية تجاه المستمع؛ لأنه يتغيا تشجيعه واستدراجه إلى المشاركة فى التفاعل. المتكلم هنا يبدى توقفه عن الجزم بصحة القضية المخبر عنها بالمنطوق. وهذا نوع إضعاف لقوته الإنجازية.

ولعل ما لاحظه فريزر، من تعبير منسوب التنغيم الهابط فى التذييلات، عن الاستياء والضجر، مما يناسب حالة بعينها؛ هى أداء التذييل فى منسوب تنغيم هابط هجومي، لا ينتظر معه إسهام المستمع فى التفاعل. من ناحية أخرى، فإن زعم فريزر بأن التذييلات الصاعدة تعبر دائماً عن رضا المتكلم، يصطدم بمنطوقات مثل: "هذا كتابي، أليس هو؟" حيث ينطق التذييل هنا فى نغمة صاعدة، ولكنه-مع ذلك- يرمى إلى تلطيف قوة الاتهام. والاتهام لا يعبر بداهة عن رضا المتكلم.

هناك نمط آخر للتذييل، هو تذييل الأمر بجملة استفهامية. يكشف هذا النمط عن مجال واسع من القوى الإنجازية المشفرة فيه، وهى قوى إنجازية لا يمكن أن نعبر عنها بوساطة أفعال أدائية، مثل: "اجلس، ألا تريد؟"؛ فالتذييل هنا يعكس الرغبة فى أن يكون المتكلم مهذباً مع زائر مميز. التذييل "ألا تريد؟" يستلزم رؤية الفعل الكلامى شيئاً يتوقع معه رغبة المخاطب فى فعله. وهو يختلف عن مثل قولنا: "اجلس، هل ستجلس؟" الذى يستلزم النظر إلى الفعل الكلامى على أنه شيء يريده المتكلم. استخدام "ألا تريد؟" فى موقف ينظر فيه إلى الفعل الكلامى على أنه من مصلحة المخاطب لا من مصلحة المتكلم، وتوظيف هذا التذييل فى تلطيف قوة الأمر السابق عليه، وجعل الخطاب مهذباً، مما يجعل الاستفهام التذييلى الملحق بالأمر وسيلة تركيبية فعالة من وسائل تلطيف القوة الإنجازية فى سياقات اجتماعية خاصة. وإذا كان للتقوية درجاتها، فللإضعاف أيضاً درجاته. تبدو درجات الإضعاف مع التذييل: "ألا تريد؟" فى إنزال الأمر إلى العرض. وهذا يتواءم مع تقديم "ألا تريد؟" الفعل الكلامى على أنه شيء يرى المتكلم أن مخاطبه يريده أو يرغب فى فعله. كذلك لا ينبغى أن ننظر إلى التذييل "هل ستجلس؟" على أنه يعبر عن مشاعر سلبية تجاه المستمع. نلحظ استعمال هذا التذييل غالباً لإنزال قوة الأمر إلى قوة الالتماس. ويتواءم هذا مع تقديم "هل ستجلس؟" الفعل الكلامى على أنه مرغوب فيه من جانب المتكلم.

كان صادوك Sadock ممن نظروا إلى الأمر الملحق بسؤال على أنه وسيلة من وسائل تلطيف قوة الأمر المباشر أو الالتماس الخشن. اجتهد صادوك فى أن يبرز إلى حقل البحث الخلفية الحضارية لاستعمال الأمر فى اللغة، يقول: "يبدو لى أن المسألة أعظم من كون الأوامر الملحقة بأسئلة تأدباً، وأعظم من كون الأوامر المجردة منها غير تأدب. أنا لا أرى فظاظة الأوامر جزءاً من معناها.

أحسب- على الرغم من ذلك- أن هناك قوانين محددة حضارياً لاستعمال اللغة، هذه القوانين التى تبين لنا أن من الفظاظة أو قلة الأدب أن نلتمس شيئاً التماساً مباشراً ممن هو ندّ لنا، أو ممن هو أرفع منا اجتماعياً[٨٨].

وأما التلطيف بأنماط خاصة من الاستفهام، فمنه الجملة الاستفهامية من النمط: "لماذا لا تفعل س؟". فى سياقات مناسبة، يتضح لنا أن جملة من هذا النمط، يقصد بها الدعوة إلى فعل شيء، أو عرض فعله، أو اقتراح فعله، أو التماس فعله، مثل: "لماذا لا تزورنا الليلة وتتناول معنا العشاء؟" [دعوة]، أو "لماذا لا تجرب شيئاً من هذا الكعك؟" "[عرض] أو "لماذا لا تتصل به، إنه يستطيع مساعدتك" [اقتراح] أو "لماذا لا تكف عن هذا اللغو" [التماس أو انتقاد].

غنى عن البيان أن التعبير بالأسلوب الاستفهامى المضمَّن معنى العرض أو الاقتراح ونحوهما، يعنى أن المتكلم لا يحاول أن يفرض رغبته على المستمع، بل يحاول أن يوجه اهتمامه إلى شيء يستحسن فعله فحسب. وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق الإنجازية.

وكانت ويرزبيكا ممن عنوا ببحث هذا النمط من الاستفهام ووصفه دلالياً. جرى وصفها له على النحو الآتي:

- أقول: أريدك أن تقول- إن استطعت- لماذا لا يفعل س؟
- أزعم أنك لن تستطيع (قوله).
- أرى أنه شيء طيب إذا فُعل.
- أقول هذا، لأننى أريدك أن تفكر فيه وأن تقول إذا كنت تريده أن يُفعل[٨٩].

تشترك العربية مع لغات أخرى فى إنتاج نمط من الجمل الاستفهامية التى تستخدم عادة لعمل اقتراحات أو عروض أو دعوات على نحو ملطف، ولكنها لا تستعمل لعمل التماسات أو أوامر، وهو النمط (ماذا عن س؟) مثل: "ماذا عن تنظيم الوقت؟" [اقتراح] أو "ماذا عن تناول الغداء في...؟" [دعوة]. لا تصلح مثل هذه المنطوقات لعمل التماسات أو أوامر؛ لأن المتكلم يعرض كل منطوق فيها من جهة احتمال الرغبة فيه عند المستمع. فى هذه الحال، لا يكون المتكلم متأكداً مما سيلقاه عند المستمع من استجابة: هل سيؤديه أم لا. ولا يقصد المتكلم هنا إلا إلى دعوة المستمع أو ترغيبه فى أداء ذلك الفعل.

وأما نفى الصفة لإثبات ضدها، فهو وسيلة أخرى للتلطيف فى منطوقات سلبية التأثير، مثل: "ليست جميلة" فى وصف امرأة أو فتاة، بدلاً من الوصف باللفظ الدال على القبح دلالة مباشرة. ويكثر هذا فى الشفرة المنطوقة بخاصة، وذلك لما فيها من مواجهة مباشرة يستحسن فيها درء احتمال الاختلاف فى الرأى أو الإساءة إلى الآخر.

وللعدول دوره فى بعض السياقات الاتصالية فى تلطيف قوة المنطوق؛ كالعدول عن حال التكلم إلى حال الغيبة، وذلك من باب محاولة المتكلم أن يدرأ عن نفسه مسئولية الحكم بصدق القضية التى يعبر عنها. ومن ذلك أيضاً العدول عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه على ما لم يسمّ فاعله. من الصورة الأولى المنطوق الآتي: "(يميل المرء) إلى القول بأن...." [بدلاً من "أميل"]. ومن الصورة الثانية: "إن سيدة على الهاتف تسأل عنك، ويُظن (ومن المظنون به) بأنها السيدة...." [بدلاً من "وأظن"].

جـ/٤ الوسائل الخطابية

تقع الوسائل الخطابية فى شرائح واسعة من الكلام. وهى تأخذ هيئة العلامات الرابطة بين تلك الشرائح. تحقق الوسائل الخطابية سبكاً نصياً داخلياً Intra-textual cohesion. وتؤدى هذه الوسائل وظيفة تلطيف القوة بالدلالة على إدراك المتكلم أمراً إدراكاً آنياً، ينتج عنه

تغيير في محور الخطاب، وربما الاعتذار عنه اعتذاراً جزئياً، كما يقول كل من براون وليفنسون[٩٠].

من الوسائل الخطابية المألوفة لهذه الوظيفة، العبارات: بهذه المناسبة، هذا يذكرني بـ، بالمصادفة، عرضاً... إلخ. وكثيراً ما يتبع المتكلم ما سبق بجملة معترضة يستدرك بها شيئاً مثل: "(بهذه المناسبة)– وقبل أن أنسى–...". مثل هذه القوالب تعد احتراسات مناسبة لمواقف اتصالية بعينها يرى فيها المتكلم لياقة في الاعتذار عن قوة منطوق لاحق، سواء أكان توجيهياً أم غير توجيهي، مثل: "(بالمناسبة) يجب أن ترتب اليوم دولاب ملابسك!" في العربية تكثر هذه الوسائل في الشفرة المنطوقة، كما أن لها حضوراً قوياً في الشفرة المكتوبة لينطق بها في اتصال مواجهة.

على هذا النحو، يكشف مفهوم تعديل القوة الإنجازية عن العلاقة الوثيقة بين أفعال الكلام الإنجازية وسياقاتها الاتصالية الاجتماعية. ويدعونا هذا المفهوم إلى القول بأن وصف القوة الإنجازية وصفاً دلالياً، وتعيين درجاتها المتفاوتة، وتحديد استراتيجياتها، ودوافع المتكلمين لتكييفها، والآثار الأسلوبية الناتجة عن ذلك التكييف، لن المداخل اللسانية التداولية الضرورية لتحليل الخطاب الأدبي وغير الأدبي في سياقاته الاتصالية الحقيقية.

لقد آن لنا أن نتخذ من نتائج الدراسات اللسانية التداولية والاجتماعية ما يساعد على تحليل الخطاب الأدبي من منظور الاختلافات بين الجنسين في استعمال اللغة. ينبغي أن يظهر في خطاب المرأة من نص مسرحي مثلاً ما لوحظ في تلك الدراسات من استخدام المرأة للاستفهام التذييلي والاحتراس وبناء الفعل للمجهول ونحوها استراتيجيات لإضعاف القوة الإنجازية للمنطوق أكثر من استخدام الرجل لها؛ لارتباط هذه الاستخدامات جميعاً ببعض السمات الشخصية المعروفة عن المرأة كالتحفظ والتردد في إصدار الأحكام والتنصل من المسئولية[٩١]. لم يسفر فحص عدد كبير من النصوص المسرحية العربية عن تبني كتابنا المسرحيين لتلك الحقائق اللغوية التي تكشف عنها اللسانيات التداولية والاجتماعية في خطاب المرأة مقارناً بخطاب الرجل. هذه المسألة نسبية بالطبع؛ وذلك أن الاحتراس والتحفظ ونحوهما فيما يتفاوت فيه الناس من جنس واحد على حسب تقديرهم للمواقف الاتصالية واختلافهم في النزعات الشخصية والخواص التعبيرية. في حقل الخطاب الأدبي يصدر العقاد مثلاً عن نزعة ظاهرة إلى الأسلوب الفوقي الذي تتضاءل معه وسائل الاحتراس اللغوية. للعقاد احتراساته بالطبع، ولكنه في تقويته لمنطوقاته يبالغ مبالغة تميزه من سائر معاصريه، حتى صارت له أساليبه المعروفة. في سيرته الذاتية (أنا) تنتشر عبارات وأساليب مثل: "والحق الذي لا مرية فيه عندي"، و"أعرف حق المعرفة"، و"أعلم علم اليقين"، و"أقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف"، و"أقرر.. نعم أقرر"...إلخ. والعقاد في احتراساته يعلو بها كثيراً إلى ما يداني التأكد من صدق القضية التي يعبر عنها، نحو: "لا أدري على التحقيق"، و"ومع هذا يجوز لي أن أقول"، و"أوشكت مع هذا أن أومن بأن...."، و"والظاهر، لا بل المحقق أنني..." ....إلخ. في عمل مناظر هو "الأيام" لطه حسين نراه قد صنع لنفسه أسلوباً خاصاً في الاحتراس مثل: "قل.. أو قل.."، و"إن شئت ..."، أو تخييره المخاطب بين شيئين كثيراً بالحرف "أو" مثل: "وذهل عن نفسه أو ذهلت نفسه عنه"، و"فلما تقدمت به السن أعرض عن التجارة أو أعرضت عنه التجارة"، و"لا تقول شيئاً أو لا تكاد تقول شيئاً"... إلخ. يمكن أن نتخذ من طبيعة الاحتراسات في نص السيرة الذاتية بين العقاد وطه حسين مؤشراً على موقعية كل منهما من نصه السيري وموقفه تجاه القضايا التي يعبر عنها فيه.

إذا كان الخطاب الأدبي–كما يقول فردیناند هالين– كطائر العنقاء، يمارس قوته في عدد غير محدود من السياقات[٩٢]، فإن ذلك أدعى إلى زيادة توسيع مجالات استثمار مفاهيم تداولية

أفعال الكلام وأسسها اللغوية لبيان كيف يكون الخطاب الأدبى فعلاً لغوياً، وكيف يتحقق إدراك المعانى الحقيقية للمنطوقات اللغوية فى الخطاب الأدبى من خلال سياقاته الاتصالية الحقيقية.

الهوامش:

(١) **إيلام، كير**: سيمياء المسرح والدراما. تـ: رئيف كرم. المركز الثقافى العربي. بيروت ط١ (١٩٩٢) ص٢٤٥-٢٤٦.

(٢) المرجع السابق ص٢٤٦ وما بعدها.

(3) Wunderlich, Dieter: Was ist das für ein Sprechakt? In: Günther Grewendorf (Hrsg.): Sprechakttheorie und Semantik. Suhrkamp Verlag. Frankfurt (1979) SS. 275-324, SS.290-291..

(4) Van Dijk, Teun, A.: Text and Context. Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse. Longman. London and New York (1980) P.215.

(٥) المرجع السابق ص٢١٥ وما بعدها.

(6) Stubbs, Michael: Discourse Analysis: The Sociolinguistic Analysis of Natural Language. Basil Blackwell. Oxford (1989) P.149.

(٧) **كولر، جوناثان: مدخل إلى النظرية الأدبية**. تـ: مصطفى بيومى عبد السلام. المشروع القومى للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة (٢٠٠٣م) ص١٣٥.

(٨) **جاكوبي، راسل: نهاية اليوتوبيا**، عالم المعرفة- الكويت (صفر١٤٢٢هـ- مايو ٢٠٠١م) ص١٠٧.

(٩) راجع فى تفصيل هذه الأنواع :

Austin, John: How to do Things with Words. Oxford Uni. Press (1962) PP.101-110.

(10) Searle, John: What is a Speech Act? In: Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context. Penguin Books. London (1990) PP. 136-154, P.136

(11) Searle, John: Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts Cambridge Uni. Press (1993) P.178.

(12) Vanderveken, Daniel: Meaning and Speech Acts. Vol.1: Principles of Language Use. Cambridge Uni. Press (1990) P.7.

(13) Searle, John: Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language. Cambridge Uni. Press Cambridge-New York (1969) pp.141-142.

(١٤) **الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)**: البخلاء. حققه وعلق عليه: يسرى عبد الغنى البشري. مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع. القاهرة (١٩٨٩) ص٢٣.

(15) Coulthard, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis. Longman Group Ltd. 6th Impression (1983) P.20.

(16) Holdcroft, David: Words and Deads: Problems in the Theory of Speech Acts. Clarendon Press. Oxford (1978) P.155.

(17) Searle, John: Expression, op. cit. p.30.

(١٨) المرجع السابق ص٣١-٤٩.

(١٩) المرجع نفسه ص٣٣-٣٤ وراجع تلك الخطوات العشر ص٣٤ وما بعدها.

(٢٠) انظر مثلاً: أوستين ص٩٩، ١٤٥، ١٤٨، ١٥١ وغيرها.

(21) Sadock, Harold, M.: Towards a Linguistic Theory of Speech Acts. Academic Press. New York- San Francisco- London (1974) P.10.

(22) Wierzbicka, Anna: A Semantic Meta Language for the Description and Comparison of Illocutionary Meanings In: Journal of Pragmatics 10 (1986) pp. 67-107, P.67.

(٢٣) **المتوكل، أحمد**: دراسات فى نحو اللغة العربية الوظيفي. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء. ط١ (١٤٠٦-١٩٨٦) ص١٠٥، ١٠٩، ١١٩ وغيرها.

(24) Searle, John: Expression, op. cit, P.3

(٢٥) المرجع السابق ص٥.

(٢٦) فصلت القول في ذلك في موضع آخر. انظر: نظرية الحدث اللغوي. مجلة الدراسات اللغوية. المجلد٢ العدد ٤ (١٤٢١-٢٠٠١) ص ص ١١-٥٢ ص٢٣.

(٢٧) راجع في تفصيل ذلك: أوستين ص٧٣ وما بعدها.

(٢٨) يتضمن التأدب-بوجه عام- مراعاة مشاعر الآخرين. وكما تقول جانيت هولمز، فإن التأدب يعني لغوياً أن تخاطب الآخرين على ضوء علاقتهم بك. أما الخيارات اللغوية غير المناسبة. فيمكن أن تعد خشونة أو قلة أدب. وتشير جانيت إلى أننا بحاجة إلى أن نفهم القيم الاجتماعية لمجتمع ما حتى نتكلم على نحو مؤدب. وتجعل جانيت للتأدب نمطين اثنين هما: التأدب الإيجابي Positive Politeness الذي يتجه إلى تحقيق التماسكSolidarity. وذلك أنه يدعم السلوكيات والقيم المشتركة. والنمط الثاني هو التأدب السلبي negative politeness الذي يدفع الناس إلى أن يبجل بعضهم بعضاً وألا يعتدي أحدهم على الآخر:

Holmes, Janet: An Introduction to Sociolinguistics. Longman. London and New York (1992) pp. 296-297.

(29) Searl, John: Speech Acts. Op. cit. P.23

(30) Grice, H.P.: Logic and Conversation. In: P. Cole and J. Morgan (eds.): Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York (1975) pp.44-45

وقارن: **العبد، محمد**: العبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال. دار الفكر العربي. ط١ (١٤١٦-١٩٩٥) ص٨١ وما بعدها.

(31) Palmer, F.R.: Mood and Modality. Cambridge Uni. Press (1993) P.29

(٣٢) المرجع السابق ص١٠٨، ويستعمل بالمر المصطلح deontic بمفهومه الواسع، ليضم هذه الأنماط من هيئات التراكيب التي تتسم- في تحديد يسبرسن Jespersen- بـ"الاشتمال على عنصر دال على الرغبة أو الإرادة Containing an element of wills". (المرجع نفسه ص٩٦).

(33) Stubbs, Michael: Discourse Analysis. op. cit. P.157.

(34) Salzmann, Z.: Language, Culture and Society. An Introduction to Linguistic Anthropology. Westview Press. Boulder-San Francisco Oxford (1993) P.198.

(35) Jakobson, Roman: Linguistics and Poetics. In: Marcel Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics. Canadian Scholars Press. Toronto (1992) PP.47-72, P.48.

(36) Bernstein, B.: Social Class, Language and Socialization In: Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context. Selected Readings. Penguin Books. Clays Ltd. England (1990) PP.157-178, P.160.

(37) Fraser, Bruce- Rintell, Ellen- Walters, Joel: An Approach to conducting Research on the Acquisition of Pragmatic Competence in a Second Language. In: D. Larsen, Freeman (ed.): Discourse Analysis in Second Language Research. Newbury House. Rowley (1980) pp.75-91, P.79.

(38) Fraser, Bruce: Conversational Mitigation. In: Journal of Pragmatics 4 (1980) pp. 341-350, P.342.

(٣٩) انظر بحثها:

Holmes, Janet: Modifying Illocutionary Force. Journal of Pragmatics 8 (1984) PP. 345-365.

(٤٠) المرجع السابق ص٣٤٥-٣٤٧.

(41) Searle, John: Expression op. cit. P.23.

(42) Holmes, Janet: Modifying op. cit. P.348.

(43) Fowler,Roger: Power. In: Teum A.van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis. Vol.4: Discourse Analysis in Society. Academic Press. London (1985) pp.61-82, pp.72-73.

(44) Lyons, John: Semantics 1, Cambridge-London-New York (1977) P.793.

(45) Brown, P.-Levinson, S.: Universals in Language Usage: Politeness Phenomena. In: E.N.Goody (ed.): Questions and Politeness. Cambridge Uni. Press (1978) P.98, P.287.

(46) Clark, Herbert· Schunk, Dole: Polite Responses to Polite Requests. Cognition 8 (1980) pp. 111-143, p.111.

(47) Austin, John: How to do Things with Words, op. cit. P.76.

(٤٨) البخلاء، مرجع سابق ص٨٥.

(٤٩) **العقاد، عباس محمود**: فى بيتي. دار المعارف بمصر. سلسلة اقرأ. د. ت ص١٥.

(٥٠) المرجع السابق ص٤٨.

(٥١) المرجع نفسه ص٥٢.

(٥٢) **الحكيم، توفيق**: الطعام لكل فم: مكتبة الآداب. د. ت ص٣٧.

(٥٣) **دربالة، عبد اللطيف**: عشاق فوق العادة. سلسلة المسرح العربي. الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٥) ص٤٨.

(٥٤) البخلاء ص٣٤.

(٥٥) المرجع السابق ص١١٩.

(56) Halliday, M.A.K. and Hasan, Ruqaiya: Cohesion in English. Longman· London (1983) P.269.

(٥٧) **العقاد، عباس محمود**: سارة. دار المعارف بمصر. سلسلة اقرأ. د. ت. ص٣٣.

(58) Halliday·Hasan: Cohesion, op. cit. P.270.

(59) Kempson, R. M.: Presupposition and the Delimination of Semantics. London· New York· Cambridge Uni. Press 1975) P.172

(60) Hudson, R.A.: The Meaning of Question. Language 51 (1975) pp. 1-31, P.9.

ومن المفيد الإشارة إلى تمييز هدلستون Huddleston بين الاستفهام والسؤال: فالاستفهام مقولة من مقولات الشكل النحوي، والسؤال مقولة من مقولات المعنى. يقف الاستفهام فى مقابل الإعلان declarative والأمر imperative ...إلخ، فى نظام نمط الجملة الكبرى. أما السؤال فيعين طائفة من الإجابات:

Huddleston, Rodney: The Contrast between interrogatives and questions. Journal of Linguistics 30. Cambridge Uni. Press (1994) pp.411-439, P.411.

(61) Leech, G. Svartrick, J.: A Communicative Grammer of English. Longman· London (1975) pp.137-138.

(62) Wierzbick, Anna: A Semantic op. cit. P.89.

(63) Sowinski, Bernhard: Textlinguisitik Eine Einfuehrung, Verlag W. Kohlhammer Stuttgart. Berlin Koeln· Mainz (1983) S. 64.

(٦٤) أوستين ص٧٣.

(65) Leech, G. N.: Explorations in Semantics and Pragmatics. John Benjamins. Amsterdam (1980) p.69.

(٦٦) البخلاء ص١٠٦.

(٦٧) المرجع السابق ص٤٠.

(68) Williams, M. P.: A Problem of Cohesion, In: J. Swales and H. Mustafa (eds.): English for specific purposes in the Arab World. Birmingham: Language Studies Unit. Aston Uni. Press (1984) pp. 118-128, pp.124-125.

(69) Halliday·Hasan: Cohesion op. cit. pp. 242-243.

(٧٠) المرجع السابق ص٢٤٢–٢٤٣.

(٧١) الطعام لكل فم ص٨٩.

(٧٢) البخلاء ص٦١.

(73) Halliday-Hasan: Cohesion. op. cit. oo. 242-243.

(٧٤) الطعام لكل فم ص٤٦.

(٧٥) سارة ص٢٤.

(٧٦) الطعام لكل فم ص٨٢.

(٧٧) البخلاء ص٨٧.

(78) Holmes, Janet: op. cit. P. 359

(79) Brown, P.: How and Why are Women more Polite: Some Evidence from a Mayan Community. In: S. Mc Connell-Ginet, R. Borker and N. Furman (eds.): Women and Language in Literature and Society. New York (1980) pp. 111-136, P.128.

(٨٠) البخلاء ص٢٥.

(٨١) البخلاء ص٣٨.

(٨٢) الطعام لكل فم ص٤١.

(83) Wierzbicka, Anna: A Semantic Meta Language. Op. cit. pp. 85-86.

(84) Fraser, B.: Conversational Mitigation. op. cit. P.349.

(85) Wierzbicka, Anna: A Semantic, P.86.

(86) Fraser, B: Conversational, op. cit. P.349.

(87) Holmes, Janet, op. cit. P.357.

(88) Sadock, Harrold, M.: Toward a Linguistic Theory of Speech Acts, op. cit. P.114.

(89) Wierzbicka, Anna: A Semantic Meta Language, op. cit. P.78.

(90) Brown-Levinson: Universals op. cit. P.174.

(٩١) انظر في تفصيل ذلك:

Haas, A.: Male and Female Spoken Language Differences. In: Psychological Bulletin. May (1979) P. 621-623.

Lakoff, Robin: Language and Women's Place. U.S.A. (1976) P.26.

Max. K.: Sex Differences in Human Speech. Humburg (1978) P.32.

(٩٢) هالين، فرديناند: البراجماتية. تـ: دكتور محمد خير البقاعي. مجلة نوافذ. النادى الأدبى الثقافى بجدة ٣ (مارس ١٩٩٨) ص١٧.